جيلان حمزه

قلب بلا قناع

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطبعة الجريدة التجارية المصرية
٤٣ شارع الشيخ ريحان بعابدين

الاهداء

والدى الدكتور عبد اللطيف حمزه

إليك يا أبى العزيز أهدى أول قصة أكتبها فى حياتى . وهى قصة فتاة من بنات الذوات عرفتها فى نادى الجزيرة ولك ياوالدى الحبيب أقدم أصدق الشكر على حسن صنيعك بى إذ أعددتنى لهذا الميدان الذى وجدته لحسن الحظ متفقاً مع ميولى الأدبية — تلك الميول التى لا ريب أننى ورثتها عنك — وتعهدتها أنت بيديك فلك الشكر على هذا وعلى ما قللت من مخاوفى من القراء ؟

ابنتك المخلصة

ميلاد حمزه

الفصل الأول

كانت مسترخية على مقعد مستطيل فى الشرفة المطلة على الطريق والشمس فى وقت الأصيل تبدو وكأنها خدر الفتاة الخجول قد أخذ يحمر شيئاً فشيئاً كلما أحست باقتراب موعـــد الحبيب . . . وكانت ترتدى غلالة شفافة حمراء تظهر روعة نهديها وكأنهما يحاولان أن يتمردا على هذه الغلالة . وشعرها الأسود الجميل كأنه يحكى أقاصيص ليل طويل . وقد أضفت الغلالة الحمراء على جسدها اللدن ذلك اللون الوردى الحلو . وفى يدها سيجارة تشد أنفاسها فى عمق ولذة بشفتيها المكتنزتين المثيرتين . وعيناها الناعستان الجميلتان السوداوان تعبران عمـــا بها من أنوثة فائرة . لقد كانت ترتدى القميص الأحمر ، وكل ما فيها ينطق بكل ما لهذا اللون من حب للحياة ومباهجها . ثم ألقت بالسيجارة خلف (الشازلونج) على بلاط الشرفة بشىء من عدم اكتراث . وقد امتلأ الجو بعطرها الممتزج بأنفاس الربيع . ثم انقلبت متعبة على أحد جنبيها ، وتنهدت فى عمق ، وجلست على (الشازلونج) ملقية برأسها على ركبتيها . وهمت بإشعال سيجارة أخرى . ولكنها تراجعت ثم نادت على أم وردة مربيتها منذ صغرها . فجاءت إليها مهرولة مجيبة :

— صباح الخير يا ست شويكار .. صح النوم دى الساعة بقت سته وأنا قلبى ما هو دنيش أصحيكى بعد كل السهر بتاع ليلة امبارح....

فقالت فى تثاؤب هادىء بطىء :

— أيوه صحيح لك حق يا أم وردة أنا ما كنتش ممكن أصحح النهاردة أبداً ، ثم أضافت بنفس الهدوء الذى يشع من نبرات صوتها :

—إلا قوليلى ..أندهلك أم وردة ولا وردة كدةعلى طول....؟

— يوه يا ستى داه أنا أم وردة لكن الوردة الحقيقى إنت . أنا خلاص كبرت وعجزت و ... و ... و ...

— أبداً لا عجزتى ولا حاجة إنت لسة شباب . على كل حال والنبى تجبيلى كباية برتقال أو أى صنف عصير علشان ميتة من العطش .

فقامت مسرعة ثم عادت بعد دقائق وبيدها كوب من البرتقال قائلة :إتفضلى يا ست الكل ربنا ميحرمنيش منك .

متشكرة خالص والنبى يا أم وردة تدعكيلى رجلية لحسن بيوجعونى شوية .

— ما هوه كل داه من لبس الكعب العالى . آخ لوكنتى تبطليه يا بنى. إنت طويلة وكل حاجـــة وموش محتاجة لا للكعب ولا غيره .

— بس أعمل إيه ياأم وردة لازم كده فى السهرات. وإلا الواحدة تبقى بلدى متعرفش تلبس . . .



يوه يا بنتى إنت مسكالى كلمة بلدى لغاية ما رجليكى وجعتك.
ثم هزت كتفيها فى عدم مبالاة وقالت :

— أما أقوم يا ستى أصلى المغرب لحسن يفوتنى وأساويلك السرير و ... و ... ثم تركتها هى وساقيها المتعبتين وقامت .

فتناولت شويكار كأس العصير ، وأخذت تشرب به فى هدوء وتؤدة ، ثم وضعته أمامها على المنضدة الصغيرة . وتناولت سيجارة وأشعلتها وهنا تذكرت أول سيجارة لها فى حياتها .

كانت فى الثامنة عشرة من عمرها . موزعة وقتها بين نادى الجزيرة والمنزل وجزء من وقتها فى المدرسة فلم تكن تحبها . تذهب إليها لمجرد أنها لن تذهب إلى أى مكان آخر . فكانت تسرق السجاير من والدها وتدخل خفية إلى الحمام ، وتنظر فى المرآة التى فوق الحوض ، وتبدأ فى إشعال السيجارة وتشد أنفاسها بطريقة تمثيلية . فهى تحب أن تقلد نجوم السينما وفلانة هانم وعلانة هانم أصدقاء زوجة أبيها فى طريقتهن فى التدخين ثم تقول :

— هؤلاء النسوة ماذا فيهن أكثر منى أو أحلى . بل إننى أجمل منهن كثيراً . إنهن كما يسمونهن نساء المجتمع ، محط الأنظار ، وملتقى عدسات التصوير . لابد أنهن سعيدات . ثم تؤكد قائلة :

— حقاً إنهن أكثر سعادة منى . ولكن لسن أكثر جمالا .
ثم تستطرد محدثة نفسها :

لابد أن أكون أسعد منهن يوماً ما . لابد .. لابد ..

كنت أرى نفسى أجمل من أى فتاة فى النادى، ومن أى امرأة من صديقاتنا . ونشأت مدللة مرفهة . فهذا أبى يجيب كل مطالبى بترحاب وسرور . ووزجة أبى تحاول جاهدة أن تثبت للمجتمع أنها كأمى تماماً بل أكثر . وكنت أستغل فيها هذه الناحية وأستغل حبها للظهور فى ثوب ملائكى . فكنت أذهب للسينما معها فى الصباح وأسهر فى منزل إحدى صديقاتى فى المساء . فإذا تشددت قليلا كنت ألجأ إلى أمضى سلاح عندى وأقول :

— معلهش لو كانت ماما عايشه مكنتش قالت لى لأ أبداً . فتبدو وكأنها قد تأثرت من كلماتى هذه كل التأثر . وتجيب مطالبى .

وظللت على هذه الحال قرابة ثلاث سنوات . وكنت قد وصلت إلى الجامعة . ولكن تبدلت أشياء كثيرة فى حياتى فلم أعد أذهب إلى السينما مع زوجة أبى فقط . ولكنى كنت قد سيطرت على المنزل كله ؛ فكنت أسهر وحدى وأخرج وحدى أو مع أحد أصدقائى .

أذكر تماماً أنه قد بلغت بى الجرأة أننى كنت آخذ عربة أبى الصيفية المكشوفة ، وأقودها فى سرعة مذهلة وبجوارى كلبى العزيز وبعض كتب الجامعة . وهناك أرتمى بجسدى المتعب بين الحشائش الخضراء أنا وكلبى . نعم كنت أحب ذلك الهدوء ،

وأحب رائحة الحقول الخضراء تتسلل إلى أنفاسى فى حنان . ثم تمضى على بضـــع ساعات وأنا أرقب قرص الشمس الدامى يختفى مـن أمامى ؛ ثم أرتد وبجوارى الكلب الذى ربما كان أعز عندى من أى صديق آخر عائدة فى سرعة جنونية إلى بيتنا فى الزمالك .. أعود إلى منزلى فلا يكون من أبى وزوجته إلا أن يقابلانى بالصمت المطبق . أما أبى فقد يكتفى بأن يرفع يديه إلى السماء يتمتم بدعوات لا أفهمها . أما زوجته فكانت تقف مكتوفة الأيدى لا تشعر أن لها حقاً ولو بسيطاً فى كلمة تقدمها لتوجيهى أو إرشادى .

أما عمتى سنية — وهى على جانب كبير من الجمال والأناقة، لم تتجاوز الحلقة الرابعة من عمرها — فكانت دائبة على نصحى وتوبيخى على هـــذه الفوضى التى أنا فيها ، وأنه لا يوجد من يستطيع فى هـــذا المنزل أن يزجرنى ، ثم تستطرد فى حدة :

— طبعاً مدلعة . أبوكى ما يحاولش يقول لك أى شيء . وهو كده طول عمره . والست مرات أبوكى طبعاً متحبش تزعلك علشـــان خاطره . يبقى طبيعى موش حتتربى طول عمرك . داه ما هواش كلام ولا طريقة ولا . . . . . ولا . . . . . . و . . .

وكنت أسخر منها فى صمت .كنت أنظر إليها وأكاد أختنق وأصرخ قائلة :

ــ إنك كاذبة مخادعة أنت مخادعة أنا أفضل منك إننى أبحث عن الحب ، ولكنك أنت تمارسين الحب مع شخص لاتحبينه . لمجرد أنه زوج ثرى أى زوج ولكنه ثرى . . . .

ومع هذا فقد وضع الله حداً لهذا العبث فى يوم وبل فى ساعة بل فى لحظة لم أكن أتوقعها مطلقاً . فقد كنت فى حالة فوضى مع نفسى ؛ فوضى مع كيانى ، فوضى مع أنوثتى الحائرة المضطربة .

كان ذلك على سطح « سميراميس » مع جماعة من أصدقائى أو من شخصيات المجتمع كما يسمونهم . بذلك وأذكر تماماً أنى كنت سعيدة ونفورة بنفسى وبجمالى ؛ كنت أشعر أن الأعين كلها تلاحقنى مشدوهة من أناقتى وإضاعتى كل ساعات عمرى فى أمور ترضى غرور أى امرأة تائهة مثلى . وكنت أعلم ذلك جيداً ؛ فأنا فى الصباح بين يدى حلاق ، وفى المساء بين أصدقائى . لايشغلنى شىء ولا يقلق بالى تفكير فى شىء . ومع هذا كنت أشعر أن شيئاً ينقصنى .وكثيراً ما ناقشت نفسى فيما ينقصنى . إنى غنية وجميلة ومحبوبة ؛ وإذن ماالذى ينقصنى . ؟

وأخيراً عرفت هذا الذى ينقصنى حين كنت فى ذلك

المساء على سطح سميراميس، أرقص فى رشاقة وخفة أنا وأحد الشبان ، وقد اجتمع حولنا جمع من المتعطلين بالوراثة ومن الذين توهموا أنهم سعداء . تحلقوا فى شكل دائرة يمتعون أعينهم بمنظرنا وإذا برجل قد اخترق هذا الجمع الصاخب فى تؤدة واعتداد .

ولم يلتفت إلينا . ثم اتخذ مقعداً له فى أحد الأركان وانتهت الرقصة وتلتها رقصات وتجمع الحاضرون حولى كل واحد منهم يريد أن ينفرد برقصة معى . فقد كنت فى نظرهم أمهر راقصة فى تلك الليلة .

نعم فقد رقصت ليلتها كثيراً وأبدعت فى الرقص كثيراً . وأنا بين ذراعى أحد أصدقائى نتماوج . وبينما صديق يرافقنى حتى المائدة سمعت صوت ارتطام . فالتفت نحو مصدر الصوت . فقد وقعت بسببى بعض الزجاجات على إحدى الموائد . فأردت الاعتذار وهممت أن أتكلم . ولكنه قاطعنى قائلا :

— أبداً أبداً ياهانم أنا إللى آسف يظهر ماكنش لازم أقعد قريب من « البيست » وأسد الممر وأضايق الرايح والجاى .

وفى خجل قلت له :

— أبداً أنا موش فاهمة إزاى داه حصل على العموم أنا آسفة جداً وأكرر اعتذارى .

عند هذا تقدم صديق أحمد ودعاه إلى مائدتنا .

فرفض أول الأمر، ولكن تحت إلحاحى وافق آخر فى النهاية. وجلسنا سوياً ولكنى كنت لا أزال مضطربة بعض الشىء فلم أحاول أن أرقص مرة أخرى. وتناولنا عشاءنا فى هدوء، وعاد أصدقائى إلى رقصاتهم من جديد. وبقيت معه وأنا لا أحاول أن أرفع عينى إليه من شدة خجلى. ولكنه بدا كمن شعر بما يدور فى نفسى، فقطع الصمت وشرع يتحدث فى الموسيقى، وحبه الموسيقى الكلاسيك فجذبنى بهذه الطريقة إلى أن أبادله الحديث.

كان يجلس أمامى بعينيه الصافيتين المملوءتين بالحنان، ووجهه الذى كان يدفعنى دفعاً فأود لو أمد يدى وأتحسسه وشعره الأسود والأبيض يضفى عليه الكثير من اكتمال الرجولة الخشنة. لقد كنت أحس أننى أود أن أغرز أصابعى فى ذلك الشعر فقد أشعر بشئ مخالف. كم كنت أفتقده عندما أعبث بيدى فى الرؤوس السوداء والصفراء الصبيانية، ثم واصل معى الكلام فى الرقص مرة أخرى.

— فسألته هل يحب الرقص؟ فنظر إلى بشىء من السخرية وأجاب:

— لأ معرفش أرقص، ولم أحاول أن أتعلمه لأنى مشغول باستمرار، وما عنديش وقت بالمرة أتعلم فيه الرقص.

فشعرت بشىء من القسوة فى كلامه هز كيانى ولكنى قلت:

— كل واحد ليه طريقته فى حياته. وهززت كتفى وأنا أتظاهر بعدم المبالاة. وأمضيت ليلتها وأنا أحس نحو هذا الرجل بشىء جديد شىء غريب أو مثير . . . . لا أدرى . . . . لا أدرى . . . . . والوحدة . . . . الوحدة . .

وقمت مع أصـــدقائى وتركناه وحده. ولم يحاول أن يتقدم ليوصلنى إلى منزلى . لقـد خيل إلى وقتها أن رجولته تغنيه عن شخصى. وعدت إلى منزلى ، ودخلت مخدعى وأنا فى لجة من التفكير فى نفسى . لقد عشت أبحث عن حياة أحسن وأجمل . عن شىء لم تفهمه سيدة كعمتى أو زوجة أبى . عن الحب فأنا أريد أن أتزوج من رجل أشعر نحوه بحب أشد وعطف أقوى .

وغلبنى النوم . ونمت ليلتها نوماً قلقاً . ثم قمت فى الصباح واستعرضت مامر بى أمس وتوقفت عند (يحيى) هكذا كان اسمه وتمنيت لحظتها لو كنت تمكنت من قلب المائدة كلها وكسر الزجاجات التى عليها . من أول السهرة حتى أتحدث مع تلك الشخصية الجذابة أطول وقت ممكن .

ثم قمت وارتديت ثيابى وأخذت العربة حتى وصلت إلى أحد ملاذى . إنه نادى الجزيرة وألقيت بنفسى على أحد الكراسى وعقلى تائه شارد . ثم قلت فى نشوة فرح يشوبه شىء من الأسى :

— ليلة لذيذة أوى بتاعت امبارح . . . .

ثم ابتدأت فى السؤال عن ذلك الرجل،وأنا لاأدرى ماالدافع إلى السؤال عنه .

لقد فكرت كثيراً فيما يعنينى فى هذا الرجل، ولكنى لم أجد جواباً ، ووجدت لسانى يسأل عنه فى إلحاح ، وأذنانى لا تسمعان إلا صوته فى البارحة ، ونبراته القوية التى تجذبك إلى سماعها ، وإلى تفسير منطق أسلوبه ، إذ كان دائماً فى شىء من الغموض المحبب إلى نفسى .

عرفت أنه مهندس فى طريقه إلى النجاح ، وأنه من أحد بلدان الصعيد ، ينحدر من عائلة متوسطة . ومرت فترة صمت قصيرة وأنا مازلت سارحة فيـه . . . . فى يحي ، وأخيراً تنبهت على صوت هز كيانى فى رجفة خفيفة مرت بجسدى المتعب . إنه يطلب فنجان قهوة . فتلفت مسرعة إلى مصدر الصوت . فإذا بى أجد ماعقد لســانى عن الكلام وجعـل عينى متسمرة عليه . إنه هو . . . هو بعينيه بكتفيه العريضين وشعره الأسود وكأنه الليل ، وشعره الأبيض وكأنه النهار .

وعاودنى شعور مرة أخرى أن أغرز أصابعى فى الليـل والنهار معاً ، فى هذين اللونين المتناقضين اللذين يتوجان رأسه فى

رجولة وغزارة ، ولكنى أفقت من أحلامى ، وقررت أن أتقدم نحوه وأجعلها مقابلة من محض الصدف . وانسللت من بين الموجودين فى خلسة ، وتقدمت نحوه ولم أستطع أن أحبك التمثيلية . فاقتربت منه بشىء يشبه البلاهة وقلت بلهفة لم أفلح فى إخفائها :

— أهلا يحيى بك فرصة سعيدة أوى . . . . .

فهب من مقعده وانتصب بجسمه الممتد . فشعرت بضآلة أمام هذا الجسم الكبير ، وهذه الشخصية القوية . ومد لى يده مصافحاً فى أدب . فألقيت بيدى فى يده وأحسست بشىء من الاطمئنان يسرى إلى جسدى ، ثم بادرته بالسؤال قائلة :

— هوه يحيى بك عضو قديم ولا مستجد ؟

فرد على ببساطة قائلا :

— أبداً أنا موش عضو ولا حاجة، أنا منتظر هنا صديق مهندس أظنك سمعت عنه ؟ « أحمد شاكر » علشان أعطى له الرسم بتاع المؤسسة ديه . . . وشوية صور لآلات تانية محتاجنها فى الشغل . . . و . . . و . . . .

وجلسنا سوياً فى انتظار هذا المهندس ، وأنا أدعو من كل قلبى ألا يحضر حتى أجلس مع يحيى فترة أطول . ثم سادت فترة صمت قصيرة قطعها قائلا :

ـ كل سنة وإنت طيبة الأيام والسنين ياآنسة بتمر بسرعة و . . . .

ولكني قاطعته فى شىء من الحزن :

ـ الأيام اللذيذة هى اللى بتمر بسرعة أوى ، لكن الأيام الوحشة بتمر بطيئة جداً ومملة . وانت طبعاً سهران فين الليلة ديه؟

ـ أبداً والله أنا موش سهران أتفسح أو أهيص. أنا سهران مع ناس بينى وبينهم شغل ، ولازم أعزمهم النهار ده . ثم سألنى بدوره :

ـ وانت سهرانة فين يامدموازيل شويكار الليلة دى إنشاء الله ؟

ـ أنا رايحة مع شلة من أصحابى فيهم هشام ونادية وأحمد وشريف اللى انت شفتهم امبارح عند شلة تانية عاملة « پارتى » .

ـ عال .. عال لطيف جداً ، إن الواحد يكون عنده «جروب» يقدر يقضى معاهم ليلة زى دى ، لأن المحلات فى رأس السنة حتكون زحمة أوى .

ـ فعلا لك حق يا يحيى بك .

كنت أنظر فى عينيه ، وأحاول أن أنفذ منهما إلى قرار أعماقه ، لعلى أجد ما يهدىء نفسى ويرضيها . ولكنى لم أكن أجد فيهما ما يهدئنى . فهما بحران من الغموض والاتزان تحولا بمرور الأيام

إلى نهر كبير ماؤه عذب .... لأنه ماء الحنان . وهذا هو كل ما يسحب المرأة إلى أرض المعركة الكبيرة المحببة إلى نفسها — المعركة التى تتحاشاها وتتهافت عليها فى نفس الوقت .

وفى المساء ذهبت إلى سهرة عند مجموعة من أصدقائى كما قلت له . فوجدت المكان معبأ برائحة الخمر ودخان السجاير . فشعرت بشىء من الغثيان من هذا الجو الخانق ، وتلك الأجساد العارية المبعثرة ، وربما التعسة . وكان هذا الشعور جديداً على كل الجدة ، وبدأت أناقش نفسى فى هذه الحالة التى اهتز فيها كيانى المبعثر هو أيضاً ورغم ذلك حاولت أن أندمج كعادتى مع المجموعة التى كانت كل حياتى من قبل، وشعرت بأن الحب قد يجنى على الإنسان فى بعض الأحيـــان . فيصيبه بشىء من الأنانيـــة المسرفة التى تدعوه إلى أن يكره النـــاس والأشياء ويضيق بالدنيا كلها حتى يظفر بمن يحب . وإذ ذاك تعود له رغبته فى مخالطة الناس والأشياء ، وتعود له بهجته القديمة بالحياة . فحين كنت مع يحيى فى النادى شعرت بأنى أود ألا تنتهى هذه اللحظات السعيدة وأنا جالسة إلى جانبه . أملأ عينى من هـذا الرجل الذى دخل حياتى فجأة وعلى غير انتظار . وحين لاحظ أصدقائى شرودى التفوا حولى يسألوننى ما الذى بى وماذا دهانى ؛ وكنت أود وقتها أن أصرخ وأستنجد بهم وأقول لقد أحببت .. إنى أحبه. ماذا أفعل ؟ إن الحب لم يزدنى شيئاً إلا العذاب حتى أصبحت لا أصلح إلا للعذاب وحدى. ومع

نفسى . لقد كرهتكم وكرهت تلك الحياة البراقة الفارغة . أنا اليوم لم أعد أصلح لكم بحال من الاحوال . ولكنى تراجعت خائفة وقلت لنفسى :

— لا .... لا .... إنهم لا يفهموننى إنهم لا يعترفون بهذا الشىء الكبير الذى يسمى الحب . ربما كان ذلك لأنهم لم يصلوا بعد إلى مرتبته السامية . وأخيراً قمت أتظاهر بالسعادة . ورقصت ليلتها جسداً لا روحاً حتى التف حولى كالعادة جمع من السعداء أو الأصح من المتطفلين التعساء يصفقون فى حرارة لكى أرقص لهم إحدى رقصاتى الجميلة ، ولم يكن بداً من الرقص . فقمت ورقصت قليلا . وكانت بعض كؤوس الخمر التى ملئت بها وقتى فى مرارة قد لعبت بى . فتصورت أن كل الأجسام الطويلة والقصيرة القوية والضعيفة جسم واحد عريض الكتفين طويل القامة يشعر الناظر إليه بضآلة أمامه . فلم تسر نفسى ولم تكتف بهذه الأحلام ، وشعرت بضياع فى هذا العالم الكبير . فسقطت مغشياً على . ولم أشعر بنفسى إلا فى ظهيرة اليوم التالى ، وبجانبى زوجة أبى ووالدى فى حالة دهشة ، والطبيب بجوارى يطمئنهما عن حالتى بقوله :

— دية حاجة بسيطة قوى . مجرد حمة تأخذ يومنها وتروح .

فقمت من نومى بعد سماع هذا الكلام ، وقد تذكرت كل شىء

حدث لى بالأمس . ووددت لو أدفن رأسى فى صدر زوجة أبى ألتمس عندها هى الأخرى الهروب من هذا الحب الذى تسبب لى فى هذه الحمى . وعاودنى شعور بالكره للحب ولحبيبى يحيى لأنه هو المتسبب فى مرضى هذا . وعقلى الذى كاد ينفجر هو الآخر ، ويكاد أن يصاب بالحمى من شدة التفكير فى الطريقة التى أقابله بها مرة أخرى .

لا .. لا بل مرات ومرات . إن حياتى أصبحت مرتبطة بهذا الشخص ... بهذا الغموض ... بهذا الشىء الذى افتقدته فى كثير من أصدقائى من قبل وقلت فى نفسى :

لابد أن ستكون بيننا أيام وليالى، ولكنها لن تنتهى على هذه الصورة الناقصة التى أنا فيها الآن .

الفصل الثانى

دق جرس التليفون فى اليوم التالى صباحاً ، وكان المتحدث يحى ، وسأل زوجة أبى على .وهى التى تعودت على الرد على أصدقائى منذ زمن. وأخبرته أنى مريضة. وأعطته رقم تليفون حجرتى فى المنزل الذى حصلت عليه من والدى بعد جهد وإصرار طويل ، ومحاورة بينى وبينه أياماً وشهوراً .

ودق الجرس فى حجرتى فرفعت السماعة ، ولم أكن أدرى من المتحدث ، فربما كانت إحدى صديقاتى . وفجأة سمعت صوته الهادىء الحنون وأنا أكاد أطير من السرير لشدة فرحى .
ولكنى تراجعت وقد غيرت قليلا من نبرات صوتى حتى يخرج ضعيفاً ينم عن الرقة وقلت :

— أيوه أنا . فقال :

— صباح الخير يامدموازيل شويكار .

— صباح النور يايحى بك

— كل سنة وإنت طيبة . لابأس عليكى . إزاى داه حصلك ؟ أنا عرفك إنت لازم رقصتى كتير امبارح . ؟

— أبداً والله موش كتير للدرجة ديه . والله العظيم

— طيب ياستى أنا خلاص مصدقك من غير حلفان ولا أى شيء .أنا كنت فى الحقيقة بأكلمك علشان أقول لك كل سنة وإنت طيبة . لكن فوجئت بانك تعبانة . ألف بعد الشر عليكى .

فلم أحاول أن أقاطعه فى الحديث أو أعقب على أى كلام ، ووددت لو يتكلم هكذا طويلا . ويقول أى شيء أى كلام أى معان ولكنه سكت فجأة وقال :

— إنت موش سمعانى و لا إيه ؟

— لا .. لا أبداً سمعاك كويس أوى . وإنت ازيك أعتقد إنك مضيت ليلة رأس سنه كويس موش كده ؟

— أيوه الشغل عاوز كده ياحبيبتى . أقصد يامدموازيل شويكار .

وكان وقع الكلمة الأخيرة موقع الشفاء من المريض . لقد شعرت وقتها أنى فى صحة لم أعهدها من قبل . . شعرت بخدر لذيذ يسرى فى أعصابى . . . . . شعرت بدغدغة تدغدغ كيانى وأنوثتى ، وتنقر على قلبى مستأذنة فى الدخول . وانتهت المحادثة وقد أخبرنى أنه سيسافر حوالى عشرة أيام ليرى ويطمئن على والدته فى بلدته .

وعلى قدر حزنى على سفره كانت فرحتى كبيرة لأنى سأتمكن من استعادة صحتى فى هذه الأيام .

وبعدالظهيرة ركبت السيارة قاصدة عزبتنا فى « بنها » حتى أستجم وأعود إلى حبيبى فى صحة وحيوية كبيرة كما كنت . إنه هو وحده الذى يستحق هذه الحيوية .وهناك ارتميت بجسدى الذابل بين الخضرة ،وتصورت وقتها أنها ازدادت اخضراراً ، وبدأ الجو المعطر برائحة الحقول أكثر روعة وجمالا .

وفكرت لكى أقطع الوقت أن أطالع قليلا فى إحدى القصص . ولكنى لم أستطع .كانت كل ورقة تبرز منها صورة حبيبى يحيى. فلم أستطع أن أرى الكلمات ، ولم أحاول تفسيرها . وقمت وفتحت الراديو . وكانت بجوارى « آمنة » تكاد ترقص طرباً من شـــدة فرحتها بقدومى . فقد كنت أعطف عليها كثيراً . ولكنى فى هذه المرة لم أشعر بوجود أى كائن حى بجوارى . لم أسمع الراديو ولا صوت آمنة وهى تردد الأغانى مع الراديو . لم أسمع غير صوته هو فقط صوته الهادىء الحنون.. حديثه الجديد على سمعى، مبادئه الغريبة على . وظللت أنتظره هذه الأيام وأنا على أحر من الجمر. وسمعت أصواتاً كثيرة فى نفسى تقول فى إصرار :

ــ إنه كباقى الرجال الذين مروا بك فى حياتك . هكذا كل رجل فى البداية وكلهم فى النهاية يتساوون. وإذذاك تملكنى شعور بالكره له. وإنه لا يزيد عن أى رجل آخر . وهكذا ظللت على هذه الحالة إلى أن عاد من سفره واتصلت به لأهنئه على سلامة الوصول . ثم تواعدنا على السهر فى «صحارى سيتى».

وفى الموعد المحدد ركبت بجواره، ونظرت إليه طويلا وقد كان فى صحة جيدة. ثم سألنى قائلا :

— إزيك وازى صحتك دلوقت يا أمورة ؟

— الحمد لله كويسة قوى . وانت باين أن صحتك اتحسنت كمان ؟

— طبعاً التغيير عليه عمل كبير فى تجديد نشاطى ..... إنت عارفه الجو فى الريف يهدى الأعصاب .

ومددت ذراعى على ظهر مقعد السيارة فى شيء من الدلال والتحدى المقصود. ولكنه استمر فى كلامه بهدوئه المعهود، مما زاد فى تحفظى نحوه وفى شعورى بأنه يستهين بى . إلى أن وصلنا هناك واختار ركناً بعيداً بعض الشيء وجلسنا فيه ولكنى فوجئت به يسألنى :

— تحبى تشربى ويسكى بالصودا ولا بالمية ؟
فقلت له متعجبة :

— إيه اللى عرفك إنى باشرب . أنا مشربتش ليلة سميراميس أبداً فابتسم قائلا :

— وحد ميعرفش شويكار نشأت . أنا عرفت كل حاجة عنك من المجلات والجرايد . وعلى العموم ديه مسألة تعويد .

وقضينا ليلتها فى سرور ،وقد زال عنى شعورى بالتحدى لهذا الرجل . وبدأت أشعر أنه عاد يتسلل إلى قلبى مرة أخرى ولكن فى بطء وعمق . وحدثنى هو ليلتها كثيراً عن نفسه وعن أصدقائه وعن ميوله وحبه لرياضة المشى . بل كان يحدثنى ولا ينظر إلى وكأنه يقبل كل جزء من تقاسيم وجهى . بل كانت تقع عيناه على عينى فى سرعة ثم يحولهما ويركزهما على أى شىء آخر غيرى . نشعرت أنه متكبر فكرهته وكرهت صحارى سيتى ومن فيها . وخيل لى وقتها أن أصفعه بكأس الويسكى الذى أمامى فى وجهه وألقنه درساً فى احترام هذه الأنثى الجالسة أمامه . ولكنى تراجعت وأنا أغلى من الغيظ . ولم أدر وقتها ما سر تراجعى . ربما كان من هيبة شعره الأسود الأبيض الذى يزين رأسه فى قوة ورجولة . أو ربما لأن قلبي لأول مرة لم يطاوعني على تصرف من هذا القبيل مع الرجل الوحيد الذى خفق له فؤادى وروحى ومشاعرى .

ثم سمعت صوتاً هاتفاً وسط الفراغ الذى أحاط بشخصى يقول :

ربما أنه لم يستطع النظر طويلا إلى عينيك من شدة تأثيرهما عليه...من شدة جمالهما لأنه لا يحب أن يضعف أمامك .

عند هذا الحد أرضى هذا التفكير كبريائى وغرورى . فقد كنت أعلم أن لى عينين سوداوين جميلتين سحرهما لا يقاوم .

إذذاك عاودنى الشعور بالحب ليحيى. وانتهت السهرة وأنا فى صراع مع نفسى ومع كيانى ومع تحديد اتجاهاتى الجديدة . ثم قمنا وفتح لى باب العربة وأجلسنى ومال على قليلا . وهنا أحسست برجفة لذيذة تسرى فى جسدى . واقترب منى فتلاحقت دقات قلبى . وكأن هذه أول مرة أكون فى هذا الموقف . ثم تراجع إلى الوراء مرة أخرى ونظر إلى بعمق وقال :

— شوفى يا حبيبتى إنت لازم تعرفى إنى معرفش أمثل أبداً وخصوصاً عليكى إنت بالذات لأنى قصدى شريف ومعروف .

كان يكلمنى وأنا مغمضة العينين . ثم مال على مرة أخرى وطبع على ثغرى قبلة طويلة عذبة أودعها كل ما لديه من عاطفة . ثم أغلق باب العربة .

وجلس على مقعد القيادة وأدار السيارة فى قسوة وعدنا إلى القاهرة . وكان ينهب الأرض نهباً فى الظلام حتى تملكنى شيء من الذعر . وهو ينظر إلى بين آن وآخر ويبتسم فى سعادة. فعرفت أن الخمر لعبت برأسه . ومع ذلك لم أستطع أن أثنيه عن عزمه فى القيادة بهذه الطريقة المخيفة . لأنى كنت كالمخدرة تماماً من الهوى والشباب والسعادة وبيحيى ! !

تحدثت مع قلبى كثيراً وقلت :

إنه ليس كغيره من الرجال . إن رائحة عطرى وثيابى الأنيقة لم تكن هى كل ما أثر فى نفسه . يظهر أنه أسمى من هذه التفاهات



وطبع على ثغرى قبلة طويلة عذبة أودعها كل ما لديه من عاطفة

وأبعدما يكون عنها . كانت قبلتنا الأولى لسبب آخر نظيف ليس لجسدى ورائحة عطرى . ولكن لنفسى وروحى وقلبى .

وأفقت من أحلامى على ما جعلنى أقف على قمـــة الزعر والخوف .

فقد دارت السيارة دورتين كالمجنونة فى سرعة مذهلة ثم انقلبت فى منخفض عميق .ولم أحس إلا ويد يحيى تقبض على رقبتى فى عنف وتدفعنى إلى دواسة السيارة . وبعدها لم أشعر إلا وأنا فى المستشفى وبجانبى أبى وأمى يتفقدان من حالى وأماعمتى التى لم تعد جميلة — هكذا تصورتها — فكانت تنظر إلى فى قسوة وتسمع أبى وزوجته الكلام الموجع . من أجل تقصيرهما فى تربيتى حتى أنهما تركانى أتسكع مع الرجال وأعود بعد منتصف الليل مخمورة على هذا النحو .

وجاء زوج عمتى هو الآخر يلعن اليوم الذى ولدت فيـــه وجئت إلى الدنيا لأجلب لهم العار والخزى اللذين سيعيشون فيهما بقية عمرهم هم وأبناءهم من أثر هذه الفضيحة بعد إذ أصبحت حديث الصحافة والمجتمع فى هذا الأسبوع . عند هذا الحد كرهت نفسى ووجودى وحياتى أنا الأخرى . وتمنيت لو لم أخلق منذ البداية . وتصورت أننى شؤم فقد ماتت والدتى وهى تضعنى وقلت :

ليتنى كنت أنا التى مت بدلا عنها وبقيت هى . وهنا تجمعت فى عينى دموع كثيرة كنت أحتفظ بها للمناسبات التى لا حيلة لى فيها غير الدموع الساخنة الحارة . وانسابت من عينى . ثم تبعتها دموع كثيرة جداً . وشعرت بعدها بنوع من الراحة . والجميع مشغولون عنى فى قراءة إحدى الجرائد التى بادرت بنشر الخبر بالتفاصيل بل أضافت عليها الكثير من اختلافاتها .

وأرهفت السمع قليلا على صوت عمتى وهى تقول :

— والجدع اللى كان معاها مجابوش سيرة عنه ؟

فرد زوجها قائلا :

— لأ أبداً أصل الجدع موش مادة جذابة لكن بنت أخوك مادة مليانة جاذبية .

— يعنى قصدى هو ما جرلوش حاجة خالص . أمال بيقولوا ليه إنه فى المستشفى ؟ !

عند هذا تعالت صرخات نفسى فى سرعة ودقات قلبى خوفاً عليه وعلى مصيره .

ولكنى سمعتهم مرة أخرى يقولون :

— أيوه صحيح لكن أعتقد إن الإصابة بتاعته أقل منها بكثير لأن العربية انقلبت ناحيتها موش ناحيته هوا .

فتنفست الصعداء وشعرت أن الله قد نجاه لأجلى أنا فقط . لقد ضاع كل شىء منى .. ضاع كيانى .. وشخصى . ولا يرضى الله أن يفقدنى يحيى

الذى هو كل شىء عندى . ولم أستطع أن أسكت فناديت بصوتى الضعيف أمى التى جاءت مهرولة . فطلبت منها رفع السرير حتى أتمكن من النوم على ظهرى وأنا شبه جالسة. وبالفعل أدارت اليد المركبة فى أسفل السرير حتى أصبح كما طلبت تماماً ثم اقتربت منى قائلة :

— حمد الله على السلامة يا حبيبتى يا بنتى .

وكنت فعلا محتاجة إلى شىء من هذا الحنان . فقد ضاقت نفسى من كلام أقاربى ومن تقريعهم لوالدى وهو جالس فى شبه ذهول . لا يعى ما يقولون بل لا يسمع شيئاً مما يقولون . ثم رفعت يدى إلى أمى فاقتربت منى ومالت على خدى ثم طبعت قبلة مليئة بالحنان والحب . فاستبقيت وجهها على صدرى . وكنت أخاف أن تبعد منى . فقد كانت شفاء لجسمى المرهق المعذب . وحصناً لقلبى من قسوة الناس ، ولأذنى من سماع ذلك الكلام الجارح القارص .

وبقيت هكذا فترة شعرت فيها أننى قد ردت لى نفسى وشخصى ، وأحسست أن لى رغبة فى البكاء . ولكنى تراجعت والدموع قد تجمعت فى عينى من قسوة كلام أقاربى . ثم لم أستطع أن أمنع نفسى من البكاء المستمر والعويل المر . وكأن والدى شعر بما فى صدرى فأقبل على صامتاً . وقد ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه

والدموع تنساب من عينيه فى سكوت ، وإن لم يحاول أن يخفيها عن الحاضرين فى الحجرة . وقبلنى فى خدى . وهو كل ما كان واضحاً من وجهى وقال :

— المهم عندى يابنتى إنك متقلقيش أبداً . إنت كويسة وسليمة . كويسة خالص والحمد لله . الحمد الله ... مفيش حاجة .

غير أن نبرات صوته المرتعشة جعلتنى أرتاب فى الأمر. فقلت والعبرات تخنقنى، وأنا متطلعة إلى عينيه لعلنى أعرف ماذا أصابنى بالضبط من هذا الحادث . وسألته مستفسرة بصوت مرتعش .

مفيش حاجة إيه يا بابا ما تكمل عايز تقول إيه . قوللى أحسن ما تخبيش .

— أبداً أبداً أبداً كل ما فيها ... كل ما فيها يا بنتى يعنى أقصد يعنى وشك يمكن يكون حصل فيه شوية جروح بسيطة و ...

وهنا قاطعته بصرخة جزع كانت تنبعث من كل جزء من جسدى ونفسى وقلبى .

فتراجع إلى الوراء وقال والحيرة تغلف قسمات وجهه الطيبة :

— أحسن حاجة ياشويكار أجيبلك الدكتور هو اللى يعرف يطمنك عن حالتك بالضبط .

وخرج متعثراً مسرعاً .

فبكيت من كل قلبي الجريح . خوفاً على وجهي وظللت أصرخ مرددة في يأس ومرارة لاذعة :

— عاوزة مرايا هاتولي مرايا أشوف وشي . أحسن شيء أموت لكن ما أشوفش وشي مشوه أبداً أبداً أبداً أ . . . أ . . .

وهنا بكيت زوجة أبي (أمي) وحتى عمتي هي الأخرى . ثم فتحت حقيبة يدها وأخرجت مرآة صغيرة . وناولتني إياها وهي تتراجع مرات ومرات . ووقتها تمنيت أنها لو لم تعطني المرآة . وأن تعود وتضعها في حقيبة يدها مرة أخرى . فلقد شعرت بجبن مفاجيء من منظر وجهي وقلت:

— يظهر أنني سأعيش بقية عمري لا أرى وجهي في المرآة . عند هـذا الحد تذكرت يحيي . وقلت يجب أن أهرب قبل أن يراني . لا لن أمسخ صورتي الجميلة في مخيلته لن يراني هكذا . وإلا سأنتحر . وكانت عمتي قد قربت المرآة من وجهي قائلة :

— تشوفي إيه يا بنتي بس . ما فيش حاجة باينه خالص . كل وشك متغطي بالشاش . وبكره تشفي وتبقى عال ويرجع وشك زي ما كان .

وهممت أن أنظر في المرآة بعينين زائغتين لأرى وجهي . . وفجأة فتح الباب ودخل الطبيب باسماً ووالدي في أثره ثم قال :

— طمنها يا دكتور وحياتك طمنها لحسن خايفه خالص . وطمني معاها أنا كمان .

فجاء الطبيب وجلس على حافة السرير وقال :

— إخصى على الناس الكبار أمال يعملوا إيه الصغيرين . ياستى دية حاجة بسيطة . إنتعندكشوية تشوهات فى جلد الوجه وكان شوية كسر صغيرين فى العظام .

وسكت برهة ثم بادرنى بالقول : —

— عيطى بقى واقلبي الدنيا . ياستى الطب دلوقت تقدم ، وعملية تجميل واحدة فى وشك ترجعه زى ما كان . والكسر ده علاجه بسيط ومعروف . لكن المهم فى كل ده أن تكون نفسيتك كويسة .



ارتاحت نفسى وهدأت لهذا الكلام . ونمت إذ ذاك حتى اليوم التـــالى . واستيقظت مبكرة جداً . وكانت نفسى مليئة بالبهجة والأمل فى الشفاء . كنت أعد الساعات والدقائق حتى تصل الساعة إلى السادسة مساء ويبدأ الطبيب فى إجراء العملية فى وجهى .

وجاءت الممرضة فى ثوبها الأبيض الملائكى . وناولتنى كوباً من اللبن وعلى وجهها ابتسامة عريضة تبعث فى نفسى مزيداً من الأمل والبهجة. وناديت عليها وقد ترددت كثيراً فى سؤالها ولـكنى عدت وتشجعت وقلت لهـا :

— ياترى أوده نمرة أربعة حالتها كويسة ومطمئنة ؟ ؟ ؟

فابتسمت فى مكر ودهاء وقالت :

— خليكى فى نفسك ياهانم . هوه كويس أوى وكان سأل عليكى كتير. فاستراحت نفسى . وشعرت أننى أتعجل موعد إجراء العملية أكثر من ذى قبل من أجل هذا الرجل . . وبعد هذا تملـكنى شعور غريب لم أستطع أن أفسر معناه — شعرت ببعض الضيق وقلت محدثة نفسى :

— اليوم أيقنت أننى لم أكن أشعر بالحب نحو هؤلاء ، أعنى نحو تلك الفئة التى يسيطر عليها عواء ذئب جائع إسمه اللذة الفانية . اليوم أنا لا أسمى ذلك الشعور أكثر من نباح كلاب ضالة ، تتعثر فى طريق الحياة بحثاً عن الخيالات والبقايا الآدمية .

وما إن أحسست ببعض الألم فى ظهرى وسيقانى حتى غلبنى النعاس فنمت حتى قاربت الساعة الحادية عشرة صباحاً . ثم استيقظت مرة أخرى على صوت الباب وهو يفتح بهدوء وتدخل منه أم وردة مربيتى الطيبة . وكانت الآلام قد عاودتنى مرة أخرى أكثر شدة . فضغطت بيدى على الجرس الموضوع تحت وسادتى . فجاءت الممرضة ولكن خانتنى قواى فلم أستطع أن أتكلم من شدة الألم فانصرفت . ثم عادت بعد دقائق وبيدها حقنة مخدرة للألم شعرت بعدها بشىء من الراحة . واقتربت منى أم وردة قائلة :

حمد لله على سلامتك والنبى ديه عين صابتك . . .

— إنت لسه بتعتقدى فى الحاجات دية ؟ ؟

أمال إيه ياست شويكار . حيكون إيه غير كده .

على كل حال يابنتى أصحابك كلهم سألوا عليكى كتير أوى . وكانوا عاوزين يجولك هنا . لكن أنا منعتهم و قلت لهم إن الدكتور منع أى حد يشوفها خالص فى المستشفى .

— أحسن يادادة لحسن أنا ماحبش حد يشوفنى كده أبداً بداً .

قلت هذه العبارات وأنا أحبس دموعى بكل مابقى لى من جهد قليل وضعيف . وأدرت وجهى نحو الحائط حتى لا تفضحنى الدموع التى كانت تعبر عن إحساسى بكل صراحة وسذاجة . ونظرت إلى الحائط

وأنا أتصور لودخل على أصدقائى وأنا على هذا الحال و نظروا الى نظرات الإشفاق التى لاأحبها مطلقاً . لم أكن أخاف شيئاً قدر أن يرونى فى أسوء منظر ووجهى مشوه بهذه الصورة حتى تكاد تضيع ملامحه الدقيقة نهائياً . كان الذى يهمنى هو ألا يرثوا لحالى ويذرفوا الدمع الساخن أوالبارد على وكأنى قد رحلت عن هذه الدنيا . إن هذه النظرات لاتبعث فى نفسى. إلامزيداً من السأم والملل بن إنها ستكون سبباً فى فقدان بقية الأمل الذى أملأ به نفسى وهذا مالا أحب أن يمر بخاطرى لحظة واحدة !

فى هذه الأثناء كانت الدموع تتساقط فى سرعة وسخونة خيل إلى وقتها أننى لم أبك فى حياتى بمثل هذه الحرارة . وأخيراً استدرت نحو المربية مرة أخرى . وهممت أن أمسح دموعى ورفعت يدى أضعها على الجزء الظاهر من وجنتى ولشدما كانت دهشتى إذ لم أجد أثراً للدموع على وجنتى مطلقاً . وعرفت أن (الشاش) والقطن الموضوع أوالملفوف حول وجهى قد امتصها . فاسترحت لعدم شعور أم وردة بما دار فى نفسى . وأحسست وقتها أن هذه الأربطة التى على وجهى تحمينى وتكتم أسرار نفسى وخيالاتى . وشعرت برضاء نحو هذه الأربطة التى كنت أنقم عليها منذ دقائق وأود لو أنتزعها من وجهى انتزاعاً وقلت لنفسى :

— إن هذه الأربطة أكثر حناناً ورحمة بى من عيون عمتى وأقاربى التى كانت تطيل النظر فى وجهى وتتفرسه فى قسوة حتى شعرت

وقتها أنها تزيد من جراح وجهي ونفسي . ثم تنهدت في مرارة وعلا صدري وهبط مرات كثيرة !!

— عندهذه اللحظة ضربت أم وردة بيدها على صدرها قائلة :

— ألف بعد الشر عليكي ياشويكار يابنتي من التنهيدات دية . وانت حتعمل إيه . قسمتك كده والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين . إستكتي يابنتي بكره لما تقومي بالسلامة والنبي لانا دحالك عجل تحت رجليكي على حسابي . أنا ماليش دعوة بأبوكي . ده ندر علي ولازم أوفيه إن شاء الله .

فابتسمت لها في ارتياح وقلت إن هذه المرأة الطيبة أكثر إيماناً من الآخرين فهي راضية بكلمة القسمة والنصيب ثم قلت :

— یاإلهي ماذا سيكون لى من نصيب آخر مع يحيي لو قدرت لى الحياة مرة أخرى ؟ لقد كنت قلقة على يحيي أكثر من قلقي على نفسي فناديت أم وردة واقتربت مني قائلة :

— خدمتك ياستي بس أمرك أناعارفه عايزه تسأليني على إيه ..! يابنتي خليكي فى نفسك وفى حالك المدهول ده .

وهنابدت أمارات الضيق على وجهي. فسكتت وفهمت كل شيء وخرجت وأنا أنتظرها على أحر من الجمر . ثم عادت متجهمة قليلا وقالت :

— أهوزي الحصان وشفته قاعد على السرير حتى بالأماره بيشرب كباية لمون وأول ماشفني . نادى على وعطاني الورقه دية ثم قالت :

— الدور عليكى ياست شويكار أنا أعرف بتحبى فيه إيه . ده حتى وشه وحش عليكى ، ولكنى لم أسمع باقى كلامها وفتحت الورقة بلهفة شديدة فإذا فيها :

حبيبتى :

لقد عز على القدر أن يتركنا فى سعادتنا . فما هى السعادة ياشويكار ؟ إنها فى نظرى أقوى من تصرفات القدر . يخيل إليك أنك إنسان محطم . ويخيل إلى أحياناً أنى مثلك إنسان محطم . ولكن هيهات هيهات أن ينال القدر من القلوب المتعانقة . أو يباعد بين روحينا . أنا سعيد فى حطامى ولا شك أنك سعيدة ايضاً فى حطامك . فلتكن لنا الحياة ، ولتكن لنا السعادة فى أى فصل من فصول مسرحية القدر التى نمثلها .

إنك ياشويكار قد ملأت حياتى . وملأت دنياى بالسعادة . وما أنا بمؤلف ولكنها ضربات قلبى الذى ينبض بنبضات قلبك ويحيا بحياة حبك . كم كنت أود أن أفديك بروحى ولكن شاء القدر أن يكون ألمك من ألمى . . .

إنى أحبك . دعينى أفوه بهذه الكلمة ففيها تخفيف للوعتى وحنى الحبيس ذلك الحب الذى استولى على كيانى وشاعرى ووجدانى . ذلك الحب الذى يسرى فى كل قطرة من قطرات دمى وكل ذرة من ذرات جسدى .

لك حبى وهو كل ما أملكه . المخلص إلى الأبد

يحيى

وطويت الورقة وأنا أردد قوله : أنا سعيد فى حطامى . وكانت يداى ترتعشان من شدة فرحتى . لقد كانت فرحة من نوع جديد . فرحتى بأنه فى كامل وعيه وأنه استطاع أن يكتب هذه السطور . لابد إذن أنه سيشفى تماماً عما قريب . وودت لحظتها لو أستطيع أن أكتب إليه أنا الأخرى وأقول :

إنى فرحة أكثر منك وأقبل يدك التى كتبت هذا الخطاب الرائع الحنون .

ولكنى أفقت من أحلامى على دخول الممرضة وفى أثرها والدى مهرولا وأمارات الخوف والقلق مرسومة على وجهه ، فقامت أم وردة وقد ارتسم على وجهها هى الأخرى أمارات الخوف . كانت تنظر إلى وكأنها لن ترانى مرة أخرى . لقد كنت أكره فيها وفيهم هذا الجبن وعدم الإيمان . ويومها لم أستطع أن أقول أنى أفضل منهم أو أحسن . ولكن لقد اجتمعت فى المتناقضات . فأنا أكثر إيماناً بالله منهم . ثم أحسست أن صدرى يضيق وأنفاسى تتلاحق فعاودنى شعورى بالكره لحياتى الفارغة المملة . ولكن قطع حبل تفكيرى دخول زوجة أبى وفى أثرها كابى العزيز المخلص . فشعرت بفرحة لدخول الكلب أكثر من دخول أى آدمى آخر فى حجرتى إذ لم يكن هناك من يلمس وفاء هذا الكلب أكثر منى . واقتربت زوجة أبى وقبلتنى فى خدى فعاودنى

ذلك الإحساس الجميل بأنها ترد لى اعتبارى وشعورى بآدميتى فالشيء الذى لن أنساه لها أنها لم تحاول تأنيبى فى هذه الفترة الحساسة . بل حاولت أن تتجاهل حدوث أى شىء يشير إلى هذا الحادث لذلك كنت أعتبرها بمثابة أمى، بل وكنت أناديها فى أغلب الأحيان (بأمى) . ثم وجدت كلبى العزيز هو الآخر يدور حول السرير ويهز ذيله فى فرح وغبطة ويحاول أن يشب برجليه الصغيرتين على أطراف السرير . لقد كنت سعيدة جداً به . أحسست أنه يحوى قلب أبيض وأفضل من القلوب الكثيرة السوداء أو هكذا تصورت وقتها كل ذلك. ثم تنبهت على صوت أحب سماعه كثيراً . إنه يبعث الأمل والإشراق فى نفسى الضائعة . إنه طبيبى الذى دخل على بوجهه الأبيض وبشرته الملساء وشعره الخفيف ، وتلك الجبهة التى تدل على ذكاء خارق . اقترب منى وأخذ يربت على كتفى فى حنو ورقة وقال :

— خلاص ياستى استعدى للعملية البسيطة أوى بتاعة النهار ده وهيه اللى حتخليكى زى ما كنت وأحسن ولا عايزه زى ما كنت وبس ؟؟ فابتسمت وقد انسابت الدموع من عينى وحاولت جاهدة أن أخفيها . لكنى لم أستطع . لم أستطيع مطلقاً . فمال على الطبيب فى صمت وهدوء ومسح دموعى ثم أدار وجهه وخرج وفى أثره الممرضة . وبقيت أمى وأم وردة ، فقامت أمى موجهة لها الكلام قائلة :

تعالى ياأم وردة هاتى معايا الشنط اللى فى العربية علشان فيها قمصان النوم والحاجات بتاعت ستك شويكار .

وخرجتا معاً وبقيت أنا وكلبي الوفى وجاء إلى فاتحاً فمه وقد أخرج منه لسانه وكأنه يحاول الكلام أويحاول أن يقول أى شيء مختلف تماماً عما يقوله غيره وذلك تشجيعاً لى وثقة بشفائى فأدنيت وجهى البشع منه ، ثم وضعت رأسى على الوسادة وانتحبت بمرارة . وكأن الكلب قد ضاق ذرعاً بنفسه وبى . فقفز على حافة السرير ووضع كلتا يديه على والدموع تتساقط منه وكان يعوى عواء خافتاً سمعت له رنة حزن عميقة تنم عن إخلاص ووفاء ورقة وشفقة فازددت بكاء وتأثراً وقلت محدثة نفسى :

القدر . . القدر ماأقساك أيها القدر . والزمن..الزمن ماأطوله وما أبطأ دقائقه التى تمر كدهر طويل إنه يجثم على صدرى وكأنه ركبة مشلولة أويد مغروزة فى عنق ثم سألت نفسى :



لم ولدت؟. لم شقيت؟. لم تعذبت معك يا زمن؟ أخلق هذا الجسد الراقد فى ذبول ليتعذب ويشقى؟ وهنا أنتابتنى نقمة صامتة . نقمة على الحياة . على الإشراق والفجر السعيد الذى يعكس الألم والعذاب والضنى على نفسى الضائعة التائهة . وأحسست بكآبة سوداء خرساء تغلف هذه الكتلة الراقدة فى يأس ومرارة . وقلت نعم . . . نعم إنى معذبة فى هذه الدنيا وهممت أن أقول نعم مرة ثالثة . ولكنها ماتت على شفتى . وأحسست كأن إبراً قد غرست فى كل جسدى رمضيت أقول :

لا لا .. لن أضعف لن أستسلم لن أيأس من قضاء الله إن الله لن ينسانى لن ينسى أى مخلوق آخر . إن والدى بشر مثلى ويكاد يدفع حياته ثمناً لشفائى فما بالك بالله !. وابتسمت من كل قلبى وأدنيت وجهى من عينى الكلب شبه الدامعتين وقلت :

— أى كلبى العزيز : إن حياتى بائسة والخوف يطفىء كل ومضة أمل أو فرح قد تمر بقلبى . ولكنى لن أيأس سأزرع الأمل فى نفسى وسأنتظر بلهفة إلى الفجر الباسم واليوم البعيد الذى لابد أن يشرق على فى ساعة ما . وعندئذ لن يبقى فى قلبى أى إحساس ضعيف أو شعور أسود . وسألهو فى الشوارع والطرقات ؛ أنا وأنت ياكلبى العزيز . وليس بعيداً ياحبيبى أن أمرح وأركض مثلك فى سعادة بالحياة التى سوف تضمنا مرة أخرى وهنا صرخت من كل قلبى :

— أنا أحبكم أيها البشر والأقارب سواء أكنتم طيبين أم خبثاء ثم أمسكت برقبة كلبى وقلت له هو الآخر :

لا تحاول أن تتخلص من قبضتى لاتحاول ياعزيزى . فسيكون لكل منا مع الآخر عودة إلى أيام سعيدة طويلة .

مر كل هذا فى وقت قصير . وجرى الكلب ناحية الباب وهو يهز ذيله وكأنه يشاركنى فرحتى بالأمل . وأخيراً فتح الباب ودخل الطبيب وأربع ممرضات حملتنى إلى سرير آخر متحرك . وشعرت بفرحة وأمل فى الشفاء . ثم دفعن السرير إلى حجرة العمليات . وقد خيل إلى وقتها أننى أستطيع أن أمشى وأجرى وأصل بنفسى إلى تلك الحجرة . وكان شكرى لله دمعات ساخنة جرت على خدى وهى تمسح عنه كآبة المرض وتجرى فيه ماء الأمل وترطبه ببسمات الحب ، وتمنيه بعودة شبابى الفياض ، وفى أعماق مشاعر تموج فى مرح ومشاعر تسعد النفس ، وعدت أقول لم سعدت معك ياقدر ؟

هكذا استيقظت أحلامى وآمالى بعد أن ضاعت وتاهت ورأيت الطبيب والممرضات فى وضع ذلك القناع الأبيض على أنوفهم جميعاً ولم تظهر من وجوههم غير أعينهم فقط . وجلت بنظرى فيهم جميعاً الممرضات الأربع والطبيب . وهم يفكون لى أربطة وجهى فى مهارة وخفة . لقد كنت أبحث عن الأمل فى نظراتهم ولكن

خاب ظني . فهذه ممرضة مهن عيناها تدل على التصرف والعمل بحالة آلية فليست سعيدة بعملها ولا شقية . وهذه الصغيرة الشقراء الحلوة وعيناها الصافيتان تنظران الى وهى تفك الأربطة. إنهما عينا فتاة مراهقة تبحث عن الحب . أو بحثت عنه ووجدته . كنت أشعر وهى تفك الأربطة أنها تعامل طفلها بلمسات كلها حنان ورقة وكأنها تغير له إحدى ملابسه الداخلية . نعم لم تنفعنى عيونهن جميعاً ، لم ار فيها جديداً . فنظرت إلى طبيبى بعينيه الزرقاوين الصافيين فتجدد الأمل فى قلبى . كانت نظراته مملوءة بالثقة والاعتداد والحنان فهدات نفسى . وبعدها شعرت ببعض الألم وبدأت أتألم كثيراً ثم صرخت :

— إلحقنى يادكتور وشى زى النار حاسة إن هوا الأودة بيحرق بشرتى الضعيفة . فلم يجبنى . بل غرس فى عضلة ذراعى إبرة مهدئة فلم أحس بعدها إلا بالوجوه وهى تتراقص والحجرة وهى تدور فى شدة والأيدى مرتعشة مهزوزة ونبضات قلبى تدق فى شدة كناقوس الكنيسة . وشعرت بعقلى يغوص فى أغوار بعيدة عميقة لا أعرف مداها . . وهنا وصرخت :

تنفسى يادكتور . فقد كنت أسمع أصداء لصوتى فى الحجرة ومازالت نظرات الطبيب حانية فى هدوء وحتى قال لجأة :

عدى ياشويكار واحد إتنين تلاته . . . .

فبدأت : واحد . إتنين تلاتة أربعة خمـ . . . . .

ولم أستطيع تكملة الباقى فقد رحت فى إغماءة طويلة لا أعرف لها نهاية حتى اليوم الثالث للعملية . إذ فتحت عينى ثم أغمضتهما فى إرهاق ثم عدت وفتحتهما مرة أخرى. ودارت عيناى فى الحجرة بسرعة . وحاولت أن أتذكر من أنا وأين وأنا . . .
إن الحجرة ليست حجرة بيتنا . وذلك الغطاء الأبيض والنور الخافت وتلك (الأباجورة) الخضراء . إن (أباجورة) حجرتى حمراء إذن فأين أنا ؟ ولم يطل انتظارى فقد وقعت عيناى على ذلك الملاك البشرى . بعينيه الصافيتين وجبهته العريضة التى تدل على ذكاء حاد. فتذكرت موقفى وإن كنت لم أستطيع أن أحدد تماماً ماذا جرى لى . ثم رحت مرة أخرى فى إغفاءة ، وتنبهت على جلوس طبيبى على حافة السرير يمسك بيدى بين يديه يدلكهما تدليكا خفيفاً فى حنو كنت فى حاجة أن أستيقظ من إغفاءتى عليه . لقد كنت أخاف أن افتح عيناى وأرى تلك الوجوه القاسية مرة أخرى . ولكننى وجدت طبيبى الذى يتعهد وجهى ونفسى التى طال عذابها على هذا النحو ثم مرت بعد ذلك دقائق صمت قصيرة ونظر إلى الطبيب بعينيه اللتين فى لون زرقة السماء النقية الطاهرة وقال لى :

ــ حمد لله على سلامتك ياستى .

فقلت فى صوت ضعيف : الله يسلمك يادكتور . هى العملية نجحت ؟

— طبعاً يا أموره أمال أنا بأقول حمد الله على السلامة إزاى يعنى نص سلامة ولا سلامة كاملة .

فابتسمت فى ارتياح . ولكنه قطع ابتسامتى فجأة لأضع مكانها ابتسامة أعرض أو ضحكة أعلى حين قال :

— أسبوع بالضبط ونشيل الشاش والقطن ويرجع وشك زى ماكان . العملية نجحت والحمد لله . أنسجة وشك سريعة الالتئام ودية أحسن حاجة تساعد الطبيب على نجاح العملية . فى تلك اللحظات كنت أسمع أحسن نبأ فى حياتى كلها . ولكنى عدت إلى حزنى مرة أخرى حين سألته عن الكسور التى فى ساقى سألته بقلب واجف ونفس مغلقة خيل إلى وقتها كأننى طير شلت أجنحته فأصبح معلقاً بين السماء والأرض . ولكنه قطب ما بين حاجبيه وفكر قليلا فى عمق ثم قال كلمات كأنها قطع من الجليد تقع وترتمى بشده على جسـد طفل عار فقد كل شىء ولم يبق له غير رحمة السماء وذلك حيث قال :

— موش منظور ياشويكار هانم إنك حتقدرى تمشى اليومين دول موش قبل شهر على الأقل . وكل شيء على الله ؛ إنشاء الله سأبذل كل ما فى جهدى .

فلم أشعر إلا والدموع تتساقط بغزارة.. كنت أبكى بحرقة . فانزعج الطبيب وأخرج منديله من جيبه ومسح دموعى وهو يربت على يدى وأنا أزداد بكاء أو قلت له :

— إنى أفضل أن أخسر وشى ولا أخسر رجلية . هيكون مصيرى إيه يادكتور ؟ إيه إللى هاعمله بوشى من غير رجلين. تصور لو أعيش طول عمرى نايمة كده موش معقول . وأمسكت بقميصه أستحلفه أن يبذل كل جهده فى رجلى . فضم يدى على صدره فى حنان كبير ثم قال :

— ربنا يعلم ياشويكار أنا بأعمل إيه علشانك وعلشان جمالك وشبابك . ثم نظر إلى بطرف عينيه ضاحكا :

— تعرفى إنك مؤثرة جداً . إنت خلتينى أخاف عليكى . لألأ أرجوك متخلنيش أفقد الثقة فى إن شفائك أكيد . بس المهم حالتك النفسية تكون كويسة جداً لأن ده يساعد على شفائك وعلى التئام العظام بتاعتك.. أنا عايزك تتفاءلى عايزك تكونى بنت متعلمة أمال إيه فايدة التعليم؟ خلى أملك فى الله كبير ربنا ما بينساش مخلوق أبداً .

فارتاحت نفسى وهدأت بعض الشىء ثم قدموا الى كوباً من الليمون وكان أول شيء يدخل معدتى منذ ثلاثة أيام . فأحسست لها بلذعة قارصة كلذعة هذه الأيام تماماً . فتمنعت عن شربها . ولكن الطبيب قربها من فمى وألح على فى شربها وفى إطاعة جميع الأوامر والتعليمات . فشربتها وانتهى هذا النهار الذى لم أستطيع أن أحدد هل أنا سعيدة فيه ،هل أنا شقية؟ لست أدرى ولم أحاول يومها أن أعرف شيئاً . ثم جاء والدى وزوجة أبى وعمتى وزوجها يهنؤونى

على نجاح العملية وقرب الشفاء . ولم تنس عمتى أن توجه إلى بعض نصائحها ولابد من تغيير طريق سلوكى وكفانى لعباً وفوضى

ثم جاء والدى وجلس قبالتى ووضع يده على (الكومودينو) واليد الأخرى تعبث فى سلسلة ساعته المتدلية . وقال كلاماً رقيقاً كطبعه تماماً وسلوكه فى الحياة :

— يابنتى إنت عارفة إن طريقة تربيتى هى منتهى الحرية . وده طبعاً يرجع لأنى قضيت جزء كبير من عمرى فى بلاد أوربا إللى تدى الحرية لبناتها كاملة . فأردت أن أعاملك بنفس الطريقة . ولكن نسيت أننا شعب مختلف عنهم تماماً . وأننا فى فترة انتقال ، فترة حرجة من حياتنا وتاريخنا . فأنا مخطىء ، وكان يجب على أن أوجهك أنت لأنك كان فى فترة انتقال محرجة أيضاً . لقد كنت ألمح فى عينيك الحيرة من أمرك . ولكنى لم أحاول أن أتقدم وأرشدك . كنت باعتبر ده شىء يخصك أنت وحدك فقط . وعرفت اليوم أنى كنت مخطئاً . ولذلك فهذه تجربة مرت بى قبلك . وثق إنى تغيرت كثيراً وسأكون أباً آخر إنشاء الله بعد مغادرتك المستشفى . وأتعشم أن تكونى أنت كمان فتاة أخرى بمشيئة الله . فسررت من كلامه المهذب الراقى . إذ لم يكن يعتمد على التأنيب أو التجريح السخيف فارتاحت نفسى راحة كبرى بل وصلت إلى أعلى درجات الهدوء الذى حرمت منه أوقات كثيرة . وأخيراً مال على وقال بصوت منخفض :

— مكلمكيش يحي النهارده فى التليفون . . .

فتعجبت و قلت له

— إيه اللى عرفك يابابى إنه كل يوم بيكلمنى ؟

فابتسم فى هدوء و قال :

وهوه يا بنتى لو مكنش يسأل عليكى كل يوم يبقى راجل ؟ أنا شخصياً ما احترمهوش أبداً . الحكايه ديه حاجة تانيه . وإنه يسأل عليكى من باب الذوق وأبسط أصول اللياقة والإتيكيت . ده واجب عليه .

فأرخيت عينى و قلت بصوت مرتعش .

— أيوه اتكلم يابابى النهاردة علشان يطمئن على حالتى . وبيبعت لى الورد ده كل يوم الساعة عشرة تقريباً .

فسر أبى كثيراً وربت على كتفى . واستأذن وخرج هو وعمتى وزوجها وأمى . وبقيت وحدى . وبعد هذا دسست يدى تحت وسادتى وسحبت المرآة الصغيرة و نظرت إلى وجهى المغطى بالأربطة بعين الرضى والتفاؤل والأمل الباسم فى الغد المشرق . وفيما سأكافىء به هذا الطبيب الفنان الماهر بعد شفائى وخروجى من المستشفى . وشعرت ساعتها أننى أحب جميع أطباء العالم وأحب علم الطب نفسه . وفجأة انقطع حبل حديثى مع نفسى ، فإن باب الحجرة قد تحرك فى هدوء وسكون ودخل رجل لم أتبينه فى أول الأمر . فمددت

يدى الضعيفة النحيلة واتكأت على زر النور فأضاءت (أباجورة) الحجرة ونظرت إلى القادم ولم أصدق عينى . وفتحت ذراعى فى ضعف فألقى بجسمه فى رفق بين أحضانى وأمسك يدى وقبلها فى شوق وحرارة . وتلاقت أعيننا وساد بيننا صمت هو حديث العيون حتى إذا ما ارتخت عيناى خجلا وارتباكا قلت له :

ــ حمد لله على سلامتك .. إنت حتخرج إمتى ؟ ؟

ــ أنا خارج بكره . وتصدقى إنى موش عايز أخرج . ياريت الدكتور يلاقى فيه حاجة تانية ويخلينى علشان أفضل جنبك .

ــ لا لأ بعد الشر عليك يايحيى موش ممكن . داه أنا بيتهيألى إنى حاخف وأقوم علشان خاطرك إنت بس فقال :

ــ وتقومى بس كده . حاف كده . إخصى عليكى .

فارتخت عيناى مرة أخرى حياء وخجلا فاقترب منى . فنظرت إلى الأرض وعلا الدم فى رأسى فاقترب منى وخيل إلى وقتها أنه ازداد نحافة . كان يرتدى البيجامة « والروب دى شمبر » فوقها واقترب أكثر ثم قبلنى على جبهتى قبلة أمل وحب . كم تمنيت واشتقت أن أسمع هذا الصوت وتلك الأنفاس قريبة منى هكذا ثم إذا به يقطف وردة من جانبى ثم ينتزع أحد أوراقها ويأخذ يدى وينظر إلى بعينيه العميقتين فى حنان . ثم أدخل ورقة الوردة فى إصبعى . كم خفق قلبى وكم شعرت بتيارات حنونة دافئة تسرى وتجرى فى كل كيانى الضعيف حين قال :

— ديه دبلة الخطوبة ياحياتى . إيه رأيك إحنا حنجوز أول يوم تخرجى فيه من المستشفى . وأظنك توافقينى ؟ ؟

فلم يكن جوابى أكثر من أننا رحنا فى عناق طويل حار . فكان هذا العناق وهذه القبلات هى صك الحب ووثيقة الاستسلام . وشعرت وقتها أنه رد لى كيانى واعتبارى كامرأة . لم يعد يهمنى مواجهة المجتمع بعد خروجى من المستشفى . فضممته إلى صدرى وقد انسابت الدموع من عينى وامتزجت بدموعه فتكونت منها دمعات بريئة شفافة طاهرة .

وبينما هو يكلمنى إذ فتح الباب ودخل من جعلنى أشعر بضآلة وخجل مزنى ووددت يومها لو أتلاشى نهائياً من الوجود . دخل ثم تراجع وأراد أن يستدير إلى الخلف ولكن أوقفه يحى وشده من ذراعه قائلا فى مرح :

— موش تبارك لنا يادكتور خلاص حنتجوز أول يوم لخروج شويكار وإنت إنشاء الله حتكون أول مدعو فى الفرح .

فابتلع الرجل ريقه بصعوبة وقد اصفر وجهه قليلا ثم مد يده مصافحاً . ألف مبروك .وجاء إلى فى خطوات بطيئة ثقيلة ومد يده وأحسست بها منداة قليلا وهو إحساس لم أشعر به من قبل . فقد كانت يده دافئة على الدوام .

الفصل الثالث

مرت أيام وأيام منذ خرج يحي من الحجرة المجاورة ولم أعد أسمع الضجيج الذى تحدث فى حجرته من كثرة أقاربه وأمه التى روى لى عنها الكثير وعن شدة حبها له . وإنها تخصه بعطف وحنان كبير من دون سائر إخواته البنات .

سكتت الحجرة وسكت الضجيج المتعب المحبب إلى نفسى، لم تعد ترن فى أذنى ضحكاته العالية مرة أخرى . فأحسست بالوحدة والوحشة فى حياتى . وكانت أم وردة تحضر يومياً وكذلك أبى وأمى التى كانت تصر وتصمم أن آكل التفاحة عن آخرها وتصفنى بالعناد . وكان هذا أول عهدى فيها مصممة هكذا . فكنت آكل التفاحة من يدها وأنا سعيدة . إنها تغيرت . إن الحادث الذى مر بى سيغير من أخلاق كل فرد فى البيت .

لقد كنت سعيدة بهذا التغيير ؛ ربما لأن نفسى متقلبة فهى كالبحر تماماً فى غدره . تارة يعطى وتارة يأخذ ... تارة يشد وأخرى يجذب . ومع هذا كنت فى حاجة إلى يحي . ولم يكن يستطيع إلا أن يحدثنى فى تليفون حجرتى فى فترات كثيرة متقطعة من النهار كانت غذائى فى وحدتى إلى أن جاء ذلك اليوم ودخل على الطبيب وهو يحاول جاهداً أن يرسم ابتسامة على وجهه . فسألته مابه فلم يكن جوابه المقتضب أكثر من أن به صداعاً خفيفاً . ثم حاول

أن ينهضني من على السرير هو وإحدى الممرضات فى رفق . وتصورت وقتها أننى سأمشى قليلا ولكنى صدمت بالواقع وفوجئت به . إذ أشار إلى شيء أمسكت به الممرضة وأمرنى أن أتكأ عليه وأحاول المشى. فبهت وأحسست بالأرض تميد ، بى وبالحجرة ومن فيها تدور فى عنف وقسوة ثم صرخت :

— إيه ده يادكتور علشان إيه أستعمل « العكاز » ده هو أنا موش هأدر أمشى من غيره لأ لأ أنا ما حبوش أبداً أبداً .

فقاطعنى قائلا :

لا لا أبداً ياشويكار هانم داه مجرد كلام . إنت كويسة خالص بس رجلك اليمين موش عاوز أحط عليها ضغط دلوقت لغاية ما تلتئم خالص .

فاطمئنت بعض الشيء . لقد كنت أثق فيه ثقة عمياء . فقد كانت عيناه الصافيتان وتعابير وجهه تجبرنى على الثقة به والشعور بالأمان إلى جانبه . وسرت حتى خرجت من الممر الطويل الذى فى آخره شرفة مطلة على حديقة واسعة فأسرعت قليلا ومازال الطبيب والممرضة يساندانى حتى اتكأت على سور الشرفة . ونظرت بعيداً وقد أراح اللون الأخضر عينى وشعرت بلفحات النسيم الجميل على وجهى ترطب أعصابى ، وتجدد فى نفسى الأمل فى الحياة والمرح . وفى الأيام السعيدة المقبلة ولكنه قال :

ـــ كفايه ياشويكار هانم النهارده كده .

ـــ لا لا أرجوك يادكتور الحياة حلوة . وازدادت حلاوتها دلوقت فى عنيه . أرجوك عاوزه أفضل كده فى البلكونه لغاية ما عنيه تشبع من المنظر الرائع ده .

وأمر الممرضة أن تحضر كوباً من الليمون . فجرت مسرعة ثم التفت إلى :

ـــ أنا أهنيكى بالخطوبة من كل قلبى . ثم اقترب منى قليلا وضمنى إليه فى سرعة لم أشعر بها .

وانقضت الأيام على هذه الوتيرة . وكانت قد ذهبت الأربطة اللعينة من وجهى . وعاد تماماً إلى جماله وروعته . كنت فرحة جداً حتى أننى كنت أجلس الساعات والمرآة فى يدى أنظر إلى وجهى فى تيه واعتزاز ودلال وأنظر إليه كأنه أوحشنى . وكنت فعلا فى شوق إليه وإلى بشرته الجميلة الملساء وإلى ملامحه الدقيقة المنسقة أتحسس بأصابعى عينى وخدى وخاصة أنفى الصغير المدبب إلى أعلى قليلا ـ أنفى الذى طالما غطته الأربطة وحجبت شموخه عنى .

حياتى رتيبة : الفطور الساعة التاسعة . المشى قليلا ولكن بدون ذلك الشىء الخشبى القاسى اللعين . فلقد رحمنى الله منه . وفى الساعة السادسة المشى مرة أخرى حتى السابعة . وبقيت على هذه الحال ما يقرب من أربعين يوماً . ولكنى لم أشعر بالضيق كثيراً . لقد حل محله إيمان بالله فى عطفه وفى رحمته . وأما يحيى فكان كل

يوم يبعث إلى بالخطابات الحارة الملتهبة الصادقة ، ويدسها فى باقة الزهور خفية . وكنت أنتظر خطابه فى الصباح بقلب ملهوف وشوق زائد وأقرأه ثم أعيد قراءته وأغيب فى عالم آخر من النشوة والسعادة والتفاؤل والهناء : لقد كانت خطاباته تؤكد وفاءه وإخلاصه فأزداد زهواً وفخراً . إلى أن جاء اليوم الذى بدأت فيه صديقاتى يترددن على باستمرار . وكن يحضرن فى أوقات مختلفة جماعات كباقة من أحسن أنواع الزهور . كان لوجوههن المشرقة الجميلة وأجسامهن الرقيقة الساحرة وقع جميل على نفسى التى ضاقت فى هذا الوقت من تكرار الأيام متشابهة بعضها ببعض فى بطء شديد . كان لألوان ملابسهن وأناقتهن الجميلة باعث على عودة حبى للحياة . الحياة بحلوها ومرها . كنت أنظر إليهن وكلى أمل فى الغد السعيد وأيامه التى سأملؤها ربيعاً نقياً طاهراً بحبى ليحيى توأم روحى وشقيق نفسى وموضع أمانى القليلة الباقية لى فى الحياة . كانت صديقاتى يحدثننى عن النادى ومن فيه وما طرأ عليه من جديد . وعن تمام خطوبة فلانة وقرب زواج علانة وكن يتحدثن أحياناً عن موضة الربيع وما جد من التسريحات وآخر مبتكرات (كريستيان ديور) . حقاً لقد بعثن فى نفسى الأمل والبهجة . فقد كن أحياناً يدخلن على الحجرة بضجيجهن وضحكاتهن المرحة وعيونهن المعبرة عن مدى فرحتها بقرب الربيع وفرحتها بقرب شفائى أيضاً . وكنت أنتظر . وأنتظر زيارتهن فى لهفة وشوق بالغ حتى لقد

كنت أخرج وأنتظرهن فى الشرفة المطلة على الحديقة .

وطلع على نهار جديد جميل وجاءت فيه ليلى وحدها فى الصباح تحمل باقة من الورد وكأنها تحمل طفلا رضيعاً . ودخلت على بجسمها الرقيق الصغير وعينها الممتلئتين بالأنوثة . الواسعتين فى حدة وقد تركت شعرها الذهبى يسترسل على كتفيها فى عبث لذيذ قائلة :

— صباح الخير على الجميل اللى آعد ده . مبروك مبروك قربت ياحبيبتى تخرجى من المستشفى موش كده ولا إيه . ؟؟

— صباح النور ياليلى . ليه بس التعب ده . أنا فعلا أربت أخرج من هنا .

— أبداً لا تعب ولا حاجة ياستى أقل منها ده الورد بيفرح الواحد السليم فما بالك العيان ؟

ثم قامت وقطفت وردة وقدمتها لى ثم قالت :

— إش إش إيه الأناقة دية كلها . أيوه كده دلوقت أصبحت شويكار بتاعت زمان إيه الشياكة دية .

ووقفت تدور حولى تتفرس فى . لقد كنت فعلا مرتدية قميصاً شفافاً أزرق كزرقة السماء تماماً . تحليه شرائط بيضاء موزعة على صدره بشكل جميل منسق وأرتدى فوقه « روب دى شمبر » أبيض حريرياً أملس . وقد عقصت شعرى إلى الخلف فاسترسل على ظهرى فى استكانة وهدوء . ولكنها لم تكتف بذلك

بل جرت مسرعة وأخرجت من حقيبة يدها الصغيرة أدوات للزينة قائلة فى صيغة تشجيع :

ياشيخة حطي شوية أحمر فى شفيفك لحسن لونهم موش أدكده وشوية بودرة خفيفة . فقلت متراجعة :

— لا لا ياليلى بلاش أنا مأخدتش إذن من الدكتور فى أنى أحط تواليت و . . . فقاطعتنى بقولها :

— وهى دية كان عايزه إذن ياشويكار ؟ طبعاً تحطى أمال إيه حتى ياحبيبتى على الأقل علشان يشوف ثمرة نجاحه وطول تعبه داه كله طلع بفايدة .

ففكرت قليلا ثم قلت لها :

— فعلا ياليلى لك حق . دلوقت هو حيفوت على . وأظن راح ينبسط قوى لو شاف وشى حلو .

وأخذت منها البودرة وبدأت أنثرها على وجهى . وأنا أشعر بسعادة وفرحة وكأن شيئاً عزيزاً فقدته وفقدت الأمل منه . ثم عاد مرة أخرى وأمسكت بإصبع الروج ولكنى تراجعت وقلت لها :

— يا ليلى أكيد أنا نسيت أحط الروج إزاى . والله أنا خايفة ابتدى يطلع وحش .

وضحكنا معاً فى مرح وهى تشير لى بيدها أن أبدأ مسرعة .

ووضعته بيد مرتعشة من البهجة التى لا توصف والسعادة المفرطة ونظرت إلى وجهى ودققت النظر فيه . حقاً لقد عاد كما كان إلا من آثار بسيطة طفيفة . قد خفت أكثر بعد وضع المساحيق . ثم التفت إليها فوجدتها تنظر إلى فى إمعان . فلم أتمالك نفسى من أن أحتضنها فى شدة وقد ارتفع صوتانا فى وقت واحد . الحمد لله . الحمد لله .

وبينما نحن فى موقفنا هذا . دق الباب فانتفضنا وابتعدنا وقالت لى :

اقعدى ياشويكار بسرعة على الفوتيل ده . لازم الدكتور . اقعدى بسرعة علشان يشوفك . فجلست فى سرعة وخفة ووضعت على ثغرى ابتسامة واسعة . ثم جرت ليلى نحو الباب وفتحته على آخره قائلة :

حتشوف مفاجئة يادكتور و . . . ولكنها كفت عن الكلام وشهقت واضعة يدها على فمها .

فنظرت فقد كانت مفاجأة لى ولها . إنه حبيبى الذى سعد بالسعادة والحطام معى . إنه يحى أقبل على فى سرعة وتلهف واحتوانى بين ذراعيه وأخذ يتفرس فى وجهى الجميل . وهو مشدوه وتحسس شعرى فى رفق وحنان . وقد سادت فترة صمت قصيرة بيننا . ثم تذكرت ليلى فقدمته لصديقتى التى ما زالت واقفة وهى فى حيرة من أمرى .

— يحيى طبعاً عرفاه .

وقلت له :

ليلى صديقتى إللى كنت باكلمك عنها كتير فى التليفون .

ثم تصافحا قائلا :

— تشرفنا يا أفندم فعلا شويكار كلمتنى كتير عنك وعن أخلاقك العالية وديه فرصة سعيدة أوى .

فردت قائلة :

أنا أسعد يايحيى بك الحمد لله على سلامتها و . . .

ولكنه قاطعها فى مرح لم أعهده فيه من قبل حين قال :

سلامتها هى بس وموش سلامة الطرف الثانى من القصة المثيرة .

فقالت فى حياء :

سلامتكم إنتم الإثنين .

ثم التفت إلى قائلا :

— غمضى عينيك الحلوين ومتفتحيش إلا لم أقول لك .

فأغمضت عينى قليلا ولكنه قال :

لا لا ما ينفعش أنا قلتلك ما تفتحيهمش إلا لما أقولك أنا ولا أحسن تتفضل مدموازيل ليلى وتغمى لها عينها شويه مدة دقيقة واحدة .

فقالت ليلى :

إيه الحكاية ياجماعة أنا موش فاهمة على العموم . أنا حيخس

على إيه واقتربت منى ووضعت يدها على عينى بخفة . ولم أشعر إلا ويحي يمسك بذراعى الأيمن . وشعرت بشيء رقيق ينساب فى أصبعى . وحين فتحت عيناى وجدت ما جعلنى أصل إلى قمة السعادة . لقد كانت دبلة للخطوبة .

ونظرت إلينا ويدها فى خصرها قائلة :

— عال عال ألف مبروك ربنا يهنيكو ببعض . تسمحوا لى أخرج بقى لحسن أنا عايزه أسيبكم على راحتكم وخرجت .

فالتفت ناحيتى يحي وقال .

— قومى ورينى الأجسام الجميلة . لفى شمال لفى يمين . ياسلام إنت أجمل ما كنت و . . .

كنت ألف وأدور فى الحجرة وأنا فى منتهى السعادة وقد شغل عنى قليلا فى قطف وردة حمراء وقدمها لى ثم ضغط على بذراعيه القويتين وقبلنى فى لذة وهو يتحسس ظهرى . ولكنى أبعدته فى لطف ورقة وقلت له :

— لكن إنت مسألتش بابى ومامى حتى يايحي من باب الذوق لحسن يزعلوا و . . . فضحك عالياً وقال :

— إزاى مسألتهمش . وأنا أقدر أزعل بابا وماما موش معقول داه أنا طبعاً كلمتهم ووافقوا ياستى .

أواه...أى سعادة شعرت بها وقتئذ وأى حياة هنية تفتحت لى . وأى إحساس عامر بالفرح ألم بى واحتوانى . فلم يكن غريباً

على أن والدى يوافق على زواجنا . لأنه وأمى يعلمان أننى أحبه وكنت مشغولة فى الفترة الأخيرة به . وقد حدثت زوجة أبى (أمى) عنه كثيراً .

ثم قال :

— مبسوطة ياستى آدينى أخذت موافقة بابا وماما .

ثم فاجأنى بأن موعد خروجى اليوم . فتعجبت جداً وسررت فى الوقت ذاته كل السرور . لقد كانت مفاجأة لى إذ أننى كنت أعلم أنه بقى على خروجى يومان على الأقل . فلم يسعنى إلا أن ابتدأت فى جمع ملابسى فى سرعة لأضعها بإحدى الحقائب ويحيى جالس على الكرسى يشرب سيجارة فى ارتياح. وكلما مررت من أمامه بجذبنى من إحدى خصلات شعرى الطويلة التى تبعثرت فى همجية ونشوة ظاهرة . حتى أكاد أقع على الأرض فأرتمى عليه وأنا أضحك وأصرخ بصوت مرتفع . فيقابل صرخاتى بشفتيه القويتين الممزوجتين برائحة الدخان وأنفاس الشباب حتى وقعنا سوياً على الأرض . وهممت أن أقوم وأنا أتكأ عليه . وإذ ذاك سمعت دقاً على الباب وفتح . فهالنى أن أجد الدكتور قبالتى وأنا على هذا المنظر ويحيى ملقى على الأرض وبعض الورود مبعثرة بجانبه .

لكنه كمن شغل هو الآخر بالنظر إلى وجهى الجميل فلم أشعر إلا به يشد على ذراعى قائلا :

— مبروك ألف مبروك ياشويكار



. . فهالنى أن أجد الدكتور قبالتى وأنا على هذا المنظر . .

وأنا صامتة . ثم تحول نظره إلى الأرض فوجد يحيي يهم بالقيام وينفض عن ملابسه بعض أوراق الورد . لححظت عيناه وعاد ونظر إلى بعتاب أو خيل إلى وقتها هكذا . فلم أعرف ماذا أقول لولا أنقذنى يحيي بدون قصد وصافحه قائلا :

— معلهش يادكتور أعذرنا من الفرحة كنا بنلعب شوية

طبعاً طبعاً لأ مافيش حاجة بالمرة أنا مقدر تماماً وأتمنى لكما أوقات سعيدة .

فهدأت نفسى وارتاحت لهـــذه الإجابة وقلت موجهة كلامى للدكتور :

— أرجوك النهارده يادكتور تشرفنا فى البيت . يحيي بنفسه راح يفوت على حضرتك علشان تيجى معاه .

فنظر إلى وهو يتصنع السرور . نظر إلى طويلا حتى أن أصابنى شيء من الاضطراب والرعشة لقد لمحت شيئاً جديداً فى عينيه شيئاً غريباً جداً جعل الدم يتدفق حاراً إلى وجنتى وكأنى فتاة فى أول عهدها بالحب تقف خجله أمام عينى والدها الذى عرف سرها . ولـكنه وكأنه شعر بمـا فى نفسى عاد يقول لى :

إنشاء الله لازم آجى أشوفك فى حفلة الخطوبة ثم وجه نظره إلى يحيي قائلا :

— ما فيش داعى يايحيي بك تفوت على هنا . إنت طبعاً

حتكون مشغول وأنا ماحبش أضايقك . أنا حاجى لوحدى .
وأخرج من إحدى جيوب ردائه الأبيض آجندة صغيرة حمراء وقلم رفيع مذهب . وبدون أن ينظر إلى سألنى وهو يفتحها .

من فضلك العنوان يامدموازيل شويكار ؟

فأعطيته إياه وهو يكتبه بيد مرتعشة وفى سرعة . ثم خلع نظارته عنه ووضع (الأجندة) والنظارة فى إحدى جيوبه بانتظام قائلا :

— الساعة ستة إنشاء الله هأكون أول المهنئين واستأذن ثم انصرف ودخلت أنا إلى الحجرة ومعى يحيى قد أغلق الباب قائلا :

بسرعة ياشويكار علشان منتأخرش أكتر من كده . فعدت مسرعة إلى وضع ملابسى فى الحقيبة وأنا أفكر فى طبيبى . ما الذى دهاه ؟ ماذا حدث له ؟ لماذا ارتبك عندما دخل علينا الحجرة ؟ وماذا تعنى نظراته المعاتبة لى ؟

هل أحبنى أم أنا واهمة ؟ لا ليس من المعقول أن يكون قد أحبنى ـ أحب فتاة جاءت إليه محمولة وقد ضاعت معالم وجهها من أثر ليلة شبه حمراء مع يحيى ؟. وقلت مرة أخرى : لا لا ليس من المعقول أن فتاة مثلى قد دنست وجهها أظافر الخطايا . ومع هذه المخاوف والقلق الذى انتابنى لم أستطع أن أخفى فرحى عن نفسى وجلست أفكر مزهوة بنفسى . وقد عاد إلى شيء من الثقة التى تاهت وضاعت زمناً بعد هذا الحدث الملعون . ولكن سمعت صوتاً من نفسى يقول : إنه لا يحبك إنه يشفق عليك فقط : إنه يحب

فيك صورة وجهك وجسدك الذى أعاد له الشباب والنضرة . وحين طال بى التفكير وقد هدأت نفسى وارتاحت إلى هذه النتيجة . سمعت دقاً على الباب . ولم أكد أرفع عينى حتى وجدت أمامى أم وردة تدخل مسرعة وبيدها حقيبة صغيرة قائلة :

— حمد لله على سلامتك . والنبى البيت ضلمة من غيرك ولا حس ولا خبر .

— الله يسلمك يا أم وردة إياك تكونى نسيتى الحاجة تجيبها معاك ؟

فضربت بيدها على صدرها قائلة :

— عيب يا ست شويكار أمال أنا جاية أعمل إيه وفتحت الحقيبة وأخرجت فستاناً وحذاء بكعب عال .

فالتقطته مسرعة وكأنى ألتقط روحى . ووضعت الفستان على جسمى وجلست أتأمله فى المرآه وأنا فى سعادة . فتقدم يحى وأمسك خصرى بيديه القويتين قائلا :

— إيه رأيك فى الفستان عاجبك ذوقى ولا لأ ؟

فنظرت إليه بدهشة قائلة :

— إنت جبته يا يحى ذوقك حلو قوى تتصور إنى بافتكر بابا هو إلى جابه .

فضحك واستأذن من الحجرة حتى ألبس الفستان الجديد . وابتدأت أم وردة تساعدنى على ارتداء الفستان قائلة :

— أنا ياست الكل عند كلامى والنبى ده أنا جيبالك عجل لازم يدبح عند رجليكى . أنا ما رجعش فى كلامى أبداً .

فقلت لها :

— ليه بس يا أم وردة أنا ما حبش الحاجات دى أبداً .

وبأخاف كان لحسن الدم يوسخ هدومى ولا العجل يجرى ورايا والدم نازل منه زى ماحصلى وأنا صغيرة فاكرة أيام وردة ؟

فتراجعت إلى الوراء دهشة وقالت :

— يوه يابنتى إنت لسة فاكرة بس خدى بالك إنت كنت صغيرة لكن دلوقت ما يقدرش يجرى وراك .

فضحكنا قليلا وكنت فى هذه الأثناء قد ارتديت فستانى الجديد وحذائى وبدأت فى إعادة التواليت بفرحة لاتقدر . وكأنى كنت أعجل بارتداء الثوب حتى أصل إلى تصليح التواليت . وفى هذه الفترة كانت أم وردة قد جمعت ملابسى فى الحقيبة ونقلتها إلى العربة . وتأهبت إلى الخروج حتى وصلت إلى الباب الخارجى فى خطوات ضعيفة كأنى فراشة طائرة حتى وصلت السلم فنزلت مسرعة ووقفت فى الحديقة متأملة هذا الكون وما فيه وما جدعليه . حتى شعرت بأن عينى قد تعبتا من الضوء فى ذلك الوقت من الظهيرة والشمس فى كبد السماء . وتلفت يمنة ويسرة فإذا كل شىء هادىء وكل إنسان فى عمله . وهذا البستانى ينسق وينظف الحديقة . وهذا البواب يقرأ إحدى الجرائد فى تثاؤب . والعربات غادية فى طريقها فى هدوء وتؤده فقلت :

— يا إلهى أن كل شىء يسير كما هو . لقد تصورت أن العالم بأسره توقف عن الحركة حين توقفت أنا عن الحركة !!

ومشيت قليلا فى الحديقة أبحث عن شىء توقف عن الحركة فلم أجد شيئاً . كل ما حولى ساكن هادىء اللهم إلا بعض الزهرات نامت على فروعها فى استكانة ودعة . فلم أشعر إلا ويدى تقطف إحداها . وتأملتها وقلت محدثة نفسى .

— إنها ماتت ولم يبق منها غير الأوراق الجافة الكئيبة الذابلة وحمدت الله فى نفسى أنى انتشلنى الله من الموت . فقد كان مصيرى سيكون مثل هذه الزهرة المسكينة تماماً . غير أنى توقفت فجأة عن التفكير فى هذه الأشياء الصغيرة التى مرت بخاطرى . إذ عاد نور النهار يضايق عينى . فعدت أدراجى إلى البهو فى المستشفى وجلست على أحد الكراسى فى استرخاء . وسبحت بعيداً وأنا أفكر فى مصيرى و تلك الظروف التى جمعتنا سوياً وألقت به فى طريق حياتى ولكنى توقفت فجأة على صوت يحي قائلا :

— إنت كنت فين يا شويكار دا أنا دورت عليكى كتير .

فقلت له :

— أنا كنت فى الجنينة شوية ولقيت الضوء تعب عينى فرجعت تانى .

— ياله بينا علشان نلحق الغداء عند والدك .



..واضعاً يده على كتفي واليد الأخرى فى جيب ردائه الأبيض. . .

أمسك بيدى وجذبنى ولكن إلى حجرة الطبيب حتى نحييه قبل خروجنا .

ودخلنا عليه وكان واضعاً رأسه بين راحة يديه وكأنه يفكر فى عمق لدرجة أنه لم يشعر بدخولنا فوضع يحيى يده على كتفه قائلا :

— فيه حاجة تعباك يادكتور ؟

هب واقفاً كمن لدغته حية وظل فى اضطرابه إلى أن وقعت عيناه على فى أول الحجرة فهدأ وعادت قسمات وجهه إلى إشراقها وبريقها وبسط يده إلى قائلا :

مع السلامة يا هانم . أتمنى لكما حياة سعيدة .

فصافحته وقد تنبهت إلى أنه استبقى يدى فى يده الدافئة الحانية أطول من اللازم . ثم صافح يحيى وخرجنا ثلاثتنا وهو بيننا واضعاً يده على كتفى واليد الأخرى فى جيب ردائه الأبيض النظيف . وكان يضمنى إليه ضمات خفيفة حانية ويده مرتعشة . وكلما نظرت إليه فى استغراب نظر إلى هو الآخر بعينيه الزرقاوين فى هدوء والحزن ممتزج بالفرح يطل منهما ، إلى أن وصلنا إلى السلم مرة أخرى وقد تجمع حولنا الممرضات يهنئوننا فى صدق وإخلاص وظل الطبيب ممسكا بكتفى فى هدوء وقوة حتى خيل إلى وقتها أنه لا يريد أن أعبر حدود المستشفى بحال من الأحوال .

وبينما كان يحيى مشغولا بتوزيع « البقشيش » على الممرضات فى سرعة ونشاط لم أشعر إلا والطبيب قد ضمنى إليه فى قوة لم أعهدها

من قبل حتى كدت أصرخ من شدة الألم ثم أبعدنى عنه بنفس القوة . وتناول يدى وشد عليها مصافحاً ولم ينطق بكلمة . ثم استدار وذهب بعيداً عنى بردائه الأبيض النظيف . ونزلت أنا ويحيى . وكنت فى لجة من التفكير - ترى لم سلك هذا المسلك معى ؟

وركبنا العربة التى كانت أم وردة تنتظرنا بداخلها وقد رسمت على وجهها ابتسامة الرضا والسرور والشكر لله تعالى .

وسرنا ويحيى يمسك بيدى يضغط عليها وأنا أضغط على يده فى فرحة لا تقدر وكأنما نشارك بعضنا بعضاً الفرح بعودتنا إلى حياتنا . إلى أن وصلنا إلى منزلنا وقد سبقتنا أم وردة مسرعة وجاء الخدم مسرعين يصافحوننى فى حرارة . ومحمد البواب والبستانى وغيرهما . وبينما أنا أخطو إلى الباب ويحيى يمسك بذراعى نهم إلى صعود أول سلمة إذ اعترضنا رجلان وبينهما عجل كبير وتم كل شىء فى سرعة وأم وردة تزغرد وترش الملح علينا . وقد تناثر الدم على رجلى وحذائى الأنيق . فانتابنى رعب شديد وخوف من منظر ذبح العجل . فلم أشعر إلا ويحيى قد حملنى بين يديه وجرى بى على السلالم فى خفة عجيبة . وأوقفنى . فارتميت بين أحضان والدى وظل يقبلنى فى ويضمنى إلى صدره بقوة وكأنما دبت فى أوصاله الحياه من جديد . ولم أشعر إلا ودموعه تسيل على خده وامتزجت دموعنا بعضها ببعض . إنها دموع الفرحة بالعودة إلى البيت الكبير . ثم ارتميت مرة أخرى فى أحضان زوجة أبى وقد تعانقنا

طويلا وشعرت بحنان ورقة يطوفان بقلبي نحو هذه المخلوقة الطيبة وأراد يحيى أن يخرجنا من هذا المشهد المؤثر فقال بلهجة ضاحكة :

— وأنا مافيش حد يسلم على بحرارة كده أنا باين على حاغير من شويكار على كده .

فالتفت إليه ضاحكة . وسرنا جميعاً إلى حجرة الصالون وأنا أقلب النظر فى كل قطعة من أثاث المنزل وأود أن أحتضنها فى شوق . وبعد أن أبدلت حذائى الملوث بحذاء آخر . تناولنا غداءنا فى حجرة مكتب أبى لأن جميع الحجرات الباقية مشغولة . وخاصة حجرة المائدة استعداداً لحفل الخطوبة . وأخذنا نتسامر أنا وأمى فى بعض الاستعدادات الأخرى .

وردت قائلة :

— يا له ياحبيبى إطلعى شوفى فستانك وقوليلى رأيك فيه بالضبط .

دا طلع جنان :

فقلت لها :

— مرسيه أوى يامامى لكن ياترى حيطلع مظبوط . أصل أنا خسيت شوية .

— لو طلع واسع شوية يبق بلاش تلبسى « جيبيير » حتى أنا ما أحبهاش لأنها بتكتم النفس وإنت جسمك كويس ووسطك رفيع موش محتاج لها .

— طيب لونه إيه .

— دية مفاجأة بأه

لكن ياماما . ما دعتوش حد من أصحابى أبداً ؟

— إزاى يابنتى طبعاً دعينا كل إللى كانوا بيروحوا لك فى المستشفى وأنا بنفسى كلمت ليلى الساعة واحدة تقريباً .

— طب الحمد لله أصلها هى بالذات كانت فاكرة إنى فاضل لى كام يوم حتى أنا نفسى كنت بافتكر كده .

ثم نظرت إليها بطرف عينى وقلت لها :

— وعمتى كان ؟ ؟ ؟

— طبعاً أبوك عزمها هى وأولادها وجوزها .

فشعرت بثقل على صدرى وتصورت كلمات التقريع التى سأسمعها والتى ستفسد على الليلة . وتمنيت أن تتعطل عن المجىء أو تفاجأها بضيوف وتعتذر عن الحضور . ثم قلت لها :

— لكن ما فيش حد من أهل يحي حييجوا ؟

— لأ يا بنتى ما فيش حد حييجى لأن دية خطوبة . حاجة بسيطة . أنا قلت ليحي وعلى العموم هو قال كده برضه . إن شاء الله فى الكتاب كلهم راح يشرفونا .

ثم انتهيت من تناول طعامى بسرعة وقمت أعدو على السلالم إلى حجرتى وأقول فى فرح :

— كده برضه ياماما موش عايزه تقوليلى على لون الفستان كده . . . وهى واقفة تنظر وعلى فمها أو على كل قسمات وجهها ابتسامات سعيدة مشرقة . وصعدت إلى حجرتى وأنا أكاد أطير من على الأرض .

ووقفت أتأمل نفسى فى المرآه وأتأمل فستانى الذى وجدته موضوعاً على السرير وبجواره حذاء بلونه . لون زرقة السماء وتحليه بعض الورود الجميلة التى تناثرت عليه فى ذوق جميل راق . فسرت نفسى وارتاحت عينى لهذا اللون الجميل . ووضعت يدى على التليفون حتى أحجز موعداً مع حـــلاق لتصفيف شعرى وتجميله . ولـكنى ما كدت أضع يدى على السماعة حتى فوجئت بصوت ماما وقد وضعت يدها على شعرى فى رفق وأخذت تلمسه فقلت لهـا :

— هأطلب الحلاق علشان . . . »

ولـكنها قاطعتنى قائلة :

— أنا عملت كل الترتيبات اللازمة علشانك ومعادك الساعة خمسة بالضبط ودلوقت نامى شوية علشان تبقى مفرفشة بالليل .

وضمتنى إلى صدرها وتمنيت وقتها لو أبقى فى صدرها هكذا مدة أطول . ثم خلعت عنى ملابسى . وتمددت بقميصى الداخلى على السرير وقد سرت فى جسدى رعشة طفيفة كلها حنان لملامستى ذلك الفراش — فراش بيتنا الـكبير . ثم جلت ببصرى فى الحجرة

وأنا سعيدة بالعودة إلى مكان طفولتى البريئة وشبابى المبعثر . وحياتى كلها بحلوها ومرها ـ بأيامها السعيدة وأيامها التعسة الحالكة السواد .

ثم نمت نوماً عميقاً مريحاً . وقمت بعد بضع ساعات قليلة وارتديت (جونلة) حمراء واسعة (وبلوزة) بيضاء تكشف عن كتفى وقد وضعت على رأسى (إشارب) من الحرير . ولم أنس أن آخذ نظارتى فى هذه المرة . وركبت العربة بجوار السائق وأنا أود من كل قلبى أن أقودها لولا خوفى من أن تخونى شجاعتى فى هذه اللحظة فأتراجع إلى أن ذهبت فكرة قيادة العربة أدراج الرياح . ولكنى لاحظت على نفسى تغيراً كبيراً . فكلما مشى السائق مسرعاً بالعربة. فى إحدى الشوارع سألته فى شبه صراخ ألا يجرى بالعربة وكلما توقفت فجأة اهتزت أعصابى وخارت مفاصلى وتصورت الحادث اللعين يتراقص أمام عينى بقسوته وخشونته . والأدهى من ذلك أن أصبح صوت «كلاكس» العربات يزعج أعصابى ويهزها حتى وصلت إلى درجة كبيرة من توتر الأعصاب . ودفعنى كل ذلك إلى البكاء فى صمت إلى أن وصلت إلى الحلاق وأنا واضعة يدى على رأسى وقد خلعت النظارة عن عينى وأخرجت منديلى وأنا أجفف دموعى . وقد هدأت نفسى لذلك الهدوء المخيم على محل حلاقى . وبعد برهة جاء إلى سقراط الحلاق مهرولا :

ـــ أهلا وسهلا المحل نور يامدموازيل شويكار

— مرسيه أوى

مبروك خالص الست الكبيرة قالت لى إن خطوبة حضرتك النهاردة . موش كده ياmودموازيل شويكار ؟

— أيوه .. الله يبارك فيك .

قلت هذه العبارة فى شىء من الراحة وكأنى كنت فى سباق جرى طويل . فنظر إلى مندهشاً ثم قال :

— أطلب واحد قهوة ياموازيل . . .

فقاطعته :

لا لأ يامسيو سقراط أنا كويسة خالص دلوقت .

وقمت وقد سلمت رأسى له يفعل بها مايشاء دون اعتراض أو كلمة منى . وظل يحدثنى عن أحوالى وأحواله إلى أن انتهى من تصفيفه .

فخرجت مسرعة ولكن فى هذه المرة لم أجلس بجوار السائق خوفاً من ترقب حركة المرور إلى أن وصلنا إلى المنزل . فصعدت مسرعة إلى حجرتى . وهناك وجــدت أمى فى أبهى زينة وأم وردة بفستانها الأبيض الجديد وعقدها الذهبى الكبير الذى كانت تلبسه فى المناسبات فقط .

فقلت لهما :

إيه رأيكم فى التسريحة دية ؟

ووقفت أدور وألف أمامهما شمالا ويمينا فى زهو فاقتربت منى زوجة أبى قائلة :

— جنان ياشويكار التسريحة حلوة عليكى خالص. يالة البسى بقه لحسن الضيوف جم .. والتفتت إلى أم وردة قائلة :

— إيه رأيك فى التسريحة ديه يادادة ؟

فردت على فى غضب قائلة :

— أنا أعرف إيه اللى عملتيه فى شعرك ده . ترفعيه ليه متخليه نازل على ظهرك .

ومطت شفتيها فى تعجب وانصرفت وأغلقت على نفسى الباب وابتدأت أتأنى فى ارتداء ملابسى . لبست ثوبى وحذائى اللذين فى لون زرقة السماء ووقفت أتأمل نفسى فى سعادة . وتلفت إلى الوراء حتى أرى ظهرى . فوجدت الفستان يكشف عن أكثر ظهرى فى أناقة جذابة . فسررت من نفسى وهممت أن أفتح الباب وأنادى على أمى حتى تنثر على ظهرى قليلا من البودرة . ولكنى سمعت نقراً ضعيفاً متلاحقاً فى سرعة ونشاط أعرفهما تماماً . فجريت مسرعة وفتحت الباب فوجدت ليلى أمامى بجسمها الضئيل وشعرها الذهبى وقد تركته يسترسل على ظهرها فى عبث لذيذ . دخلت وخلفها جمع من صديقاتى وتفرقن وجلسن . جزء منهن على السرير والجزء الآخر على الكراسى وهن ينظرن إلىّ ثم إلى أنفسهن فى المرآة . وكل واحدة تصلح من هندام صديقاتها وتبدى ملاحظاتها عليها . وليلى مشغولة عنهن بوضع البودرة على ظهرى ثم تركتنى لتصلح من شأن نفسها وهى تردد :

— بس لو كنت طويلة شوية ياولاد كنت مسحتكم كلكم .

فترد أخرى .

— وأنا لو كنت قصيرة شوية . أنا بيتهيألى إنى عاملة زى الزعزوعة فى وسطكم .

ثم تلتفت واحدة إلى الأخرى قائلة :

— إيه رأيك لو نبادل جزمنا . لأن جزمتك تليق مع فستانى أكتر وجزمتى تليق مع فستانك .

كل هذا وأنا أبحث فى أحد علب مجوهراتى عن شىء يتمشى مع فستانى . حتى عثرت على عقد من الماس طويل يتدلى من الخلف على ظهرى . فلمعت عيناى وأسرعت بأخذه وأصلحت من (مكياج) وجهى بسرعة . ثم التفت إليهن فى حركة تمثيلية وكأنى عارضة أزياء ثم قلت :

— إيه رأيكم ياجماعة فى الفستان ؟

فلم أكد أتم عبارتى حتى سمعت صفيراً وتصفيقاً منهن معبرات عن منتهى الإعجاب بأناقتى .

واقتربت إحداهن منى قائلة :

— جنان ياشويكار إنت عملاه فين ؟

فردت عليها أخرى قائلة :

— ده لازم جاهز موش تفصيل ياعبيطه علشان ده أول يوم تقوم فيه من المستشفى تبقى حتلحق تفصله إزاى .

ثم توالت على الأسئلة فى سرعة مذهلة حتى أننى لم أتمكن من الرد ولا على واحدة منهن . وكاد ينتابنى صداع مؤلم مرة أخرى من شدة هذا الضجيج ووضعت يدى على رأسى فكففن عن الكلام ومرت فترة صمت قطعتها ليلى قائلة :

— حرام عليكم هى عاملة مؤتمر صحفى علشان تسألوها كلكم مرة واحدة .

فرفعت عينى إليهن وحاولت أن أضحك معهن قائلة :

— فعلا ياجماعة ده ولا مؤتمر صحفى .

وأردت أن أستدير وأخرج من الباب . فخرق أذنى بعض قوارص الكلام صدر من إحداهن ولا أحب أن أذكر هذه الكلمات لأنها جعلتنى أتضاءل وأتلاشى فى نفسى . ولكنى واصلت السير وحاولت أن أرفع قامتى وآخذ الوضع المناسب . وأسير بخطوات مناسبة ولكن بعد جهد جهيد . دخلت على ضيوفى ممسكة بذراع والدى أحتمى فيه من سماع هذا الكلام الجارح السخيف . حتى تركنى والدى مستأذناً للجلوس مع أصدقائه هو الآخر .

تركنى بين صحبة من صديقات زوجة أبى . وشعرت بدقات قلبى تتلاحق فى سرعةوعيناى لا تستقران على شيء وكأنما كنت

أبحث عنها حتى تحمينى هى الأخرى من صديقاتها . فلم أجده لأنها كانت مشغولة فى الترحيب بالضيوف والأقارب . ولم أجد بداً من الاندماج معهن فى الحديث . فشرعن يسألننى ويسألننى تلك الأسئلة السخيفة الفارغة التى يبعث عليها حب الاستطلاع والفضول وشعرت وقتها أنى أود أن أصرخ فى وجوههن قائلة :

إن كلامكن لن يخجلنى لن يعذبنى أتصبب منه عرقاً فكفانى مالقيته من عذاب . إنى أستطيع أن أنظر إلى وجوهكن جميعاً وإلى السماء التى كنت أخجل من رفع جبهتى الجميلة الملطخة إليها وأنفجر معلنة :

— لم يعد شىء يخفى عليكن لايوجد شىء خلف أسوار عينى وأهدابى الجميلة تحاولن التسابق إلى الوصول إليه إن كل شىء أصبح ظاهراً واضحاً كنور الشمس تماماً .

ثم تنبهت على صوت أحب سماعه دائماً إنه . يحيى بقامته الطويلة وبشرته السمراء وكتفيه العريضتين . جاء إلى مصافحاً باسماً وتمنيت أن يستبق يدى فى يديه إلى الأبد ألوذ فيها وفيه من هؤلاء وأولاء . ولكنه تركها ليصافح باقى المدعوات .

ثم جذبنى من ذراعى وسرنا حتى وصلنا إلى الشرفة المطلة على الحديقة . . . وقد أطفأ نورها . ووقفنا فى ركن فيها . ثم أخذنى بين ذراعيه وقبلنى على خدى فى سرعة وشعرت بيده تتحسس رقبتى فى بطء لذيذ . وأخذ يداعب بيده العقد المتدلى على ظهرى . ونظر إلى طويلا وأنا أتمنى أن ينظر

وهكذا إلى الأبد فمن نظرة عينيه أستمد القوة والدفء بل الحياة كلها . ثم سادت فترة صمت بيننا . ولكنى عدت ورفعت عينى إليه وكأنى أرجوه أن يتكلم ويصفح عن الشىء الذى فى صدره . ثم قربت رأسى من صدره وألقيت بها عليه . وأغمضت عينى وشعرت وقتها كأنى طفلة تلوذ بصدر أمها . ثم قال فى صوت يشبه الهمس الملائكى :

— تعرفى ياشويكار أنا سعيد بيكى جداً .

فتشبثت بصدره أكثر من قبل وشعرت بيديه تضمانى فى قسوة وشوق . ثم تسللتا إلى شعرى تعبثان فيه برقة وعربدة . وبقينا على هذه الحال فترة قصيرة . ثم أبعدنى عنه فى رفق قائلا :

— أظن احنا اتأخرنا على الضيوف ياحبيبتى . لحسن بابا يقلق علينا .

وخرجنا سوياً صامتين والضيوف مشغولون عنا وعلامات الضيق بادية على وجه أبى ثم جاء إلينا قائلا .

— الدكتور ماجاش ليه يا يحيى يا إبنى . كان حقك جبته معاك لحسن ما يصحش أبداً .

فرد يحيى قائلا فى حيرة ،

— والله أنا قلت له ياعمى . لكن هو رفض وقال لى إنه جى بنفسه ، ثم استأذن منى حتى يطمئن عليه بالتليفون . وذهبا معاً وشعرت بشىء من الفراغ المؤقت. ولكنى جبنت على الجلوس بين

هؤلاء. فسرت قليلا إلى الباب وكان مفتوحا . فأعطيت ظهرى للباب ووجهى للحاضرين أتأملهم جميعاً فى ضجيجهم ومرحهم وباقات الزهور المحيطة بهم من كل جانب . ثم تنبه الحاضرون إلى وقفتى هذه . فبدأوا ينادون على . وقام أحد أقاربى ليخلى لى مقعده قائلا :

— بأه العروسة ياناس واقفة واحنا آعدين .

وصديقاتى قد شغلن عنى فى الحديث مع الشباب . ثم تقدم منى قريبى هذا وجذبنى من ذراعى حتى أجلسنى وهممت أن أسير معه . وتسمرت رجلى فجأة عن المشى . والتفت مسرعة لأجد طبيبى من خلفى بعينيه الصافيتين وجبهته العريضة المشرقة التى تدل على ذكاء خارق وقد شد على يدى مصافحاً .

ألف مبروك . ألف مبروك أنا آسـف إنى اتأخرت لـكن زى بعضه الدكاترة كده ملهمش مواعيد .

فقلت باسمة : أبداً لاآسف ولاحاجة . ده يحي راح يطلبك فى التليفون يادكتور . وبابا الحقيقة كان قلقان خالص لحسن متجيش .

فقطب حاجبيه قليلا ونظر إلى فى عمق وتفحصنى قائلا :

— إنت أكثر من جميله لـكن ياترى حأشوفك تانى ولا لأ طبعاً إنت متحبيش تيجى المستشفى الوحشة دية تانى .

قال هذا الـكلام فى حزن بالغ وكأن عباراته قد انتابها حمى

ودوار فخرجت مكتومة مرتعشة . فقلت له وقلبى يكاد يخرج من صدرى ليمسح عن قلبه كل هذا الحزن .

— أبداً إزاى يا دكتور أنا عمرى ما أنسى جميلك على . إنت لك الفضل فى عودتى للحياة .

فنظر إلى وضحك ساخراً ثم قال :

— الفضل لله . إنت طول عمرك مؤثرة فى تعبيراتك يا شويكار .

وقطع حديثنا مجيء والدى وكل علامات البهجة والسرور بادية على وجهه قائلا : أنا سعيد جداً إنك اتفضلت وشرفت عندنا . ديه خطوة عزيزة جداً .

— أبداً أبداً يا نشأت بيه أنا الأسعد . أنا سـعيد علشان مدموازيل شويكار إن شاء الله ربنا يسعدها كان وكان لأنها بنت رقيقة تستحق كل خير .

ثم جذبه من ذراعه وسارا معاً إلى الشرفة . وشعرت أن بين الطبيب وأبى ألفة ومودة لم أشعر بهما وأنا فى المستشفى .

فسررت لذلك جداً وناديت على أحد الخدم حتى يقدم لطبيبى شيئاً يشربه . ثم تركته . وذهبت قاصدة حجرة التليفون . فوجدت يحي هناك مازال يحاول أن يتصل بالمستشفى فضحكت مقهقهة وقلت :

— الدكتور بقى له ساعة هنا يا يحي وها هو فى انتظارك .

الفصل الرابع

قمت فى الصباح متأخرة من نومى على صوت رنين التليفون وكان المتحدث يحيى ، يطلب أن أقابله بعد ساعة فى نادى الجزيرة ووضعت السماعة .

وعدت إلى رقدتى أتمطى يميناً ويساراً وأدفع الغطاء عنى فى حركات مبعثرة غير متناسقة . ثم قمت وفتحت الراديو الذى بجانبى على الكوميدينو فإذا قطعة موسيقية رائعة دفعتنى دفعاً أن أرقص أمام المرآة الكبيرة . كنت أرقص بقميصى الشفاف الذى هو بلون الشفق وأنثنى وأدور فى رقة وكأنى فنانة دفعتها تلك الموسيقى الشرقية الصاخبة إلى الرقص ولم أدر وقتها أى معنى من الرقص أنا فيه . هل هو معنى السعادة بيحيى أو السعادة بعودة نفسى إلى الحياة . فقلت نعم لقد عدت إلى الحياة . ولكن أين كلبى الذى وعدته أننا سنجرى ونلعب فى طريق الحياة معاً .

ولم يطل انتظارى فقد سمعت صوته على الباب يحاول كعادته أن يتكلم أو يخيل إلى أنه يود لو تكلم . ففتحت له الباب . فدخل فى قفزة واحدة وجلسنا سوياً على الأريكة الوردية الكبيرة وهو ذلك اللون الذى أعشقه دائماً لأنه يبعث فى نفسى الأمل والإشراق والبهجة . وإذا كان لى أن أتصور لوناً للحياة السعيدة فذلك هو اللون الذى أتصوره بها . وطفقت هكذا أداعب الكلب إلى أن

استعدت فى مخيلتى حضور طبيبى . وهنا انتابنى شعور بحزن عميق لا أعرف مداه . ولكن ليس للطبيب ذنب فى هذا الشعور . إنه أبى كلما تذكرت عبارته هذه كدت أموت حزناً وخزياً . قال هذه العبارة حين جذب طبيبى من ذراعه ولاحظت أن بينهما مودة سررت لها .

لكن وقعت هذه العبارة على سمعى كأنها حجارة قاسية رجمنى بها والدى حين قال للدكتور :

— الحمد لله على كده بينى وبينك يادكتور مافيش حاجة مستخبية عليك . أنا كنت خايف لاميطلبهاش منى . كانت أصبحت فضيحة وكان البنت وقف حالها طول العمر .

فرد عليه الطبيب :

— ليه يانشأت بيه ديه مدموازيل شويكار أى راجل يتمناها وهو مش معقول يكون يجى طلبها إلا وهو مقتنع بها موش علشان كلام الناس .

كان يقول هذا الكلام وأنا أشعر أنه يقوله من قلبه وأعصابه ومشاعره وكل خلجة من خلجات نفسه . أما أبى فكان يقول عبارته بضعف لم أعهده فيه من قبل وجبن لم يخطر ببالى أن يمر به . وكأنه لا يهمه أن الذى يأخذ ابنته يأخذها لشخصها ولكن يهمه أن يأخذها فى هذا الوقت مهما كانت غاية الأخذ .

ولكن شغلنى يحيى عن التفكير فى هذه الخواطر . وتذكرت ميعاده فقمت مسرعة وارتديت ملابسى . وكانت عبارة عن بنطلون

أسود وبلوزة سوداء . وتركت شعري يسترسل على ظهري في همجية وجريت نحو حجرة أبي نوجدته في سبات عميق . فخرجت مسرعة ومعي كابي العزيز وأخذت تاكسي إلى النادي . وهناك قابلت يحي باسماً يكاد يحملني على ذراعيه من فرط سروره . ولكن غلب على الاضطراب وكدت أتعثر في خطواتي حين لاحظت أن الأعضاء ينظرون إلى ويحملقون في وجهي ويتهامسون على . حتى صديقاتي كن يتهامسن . فشعرت بضيق في صـــدري فاتكأت على ذراع حبيبي يحي وسرنا بعيداً بعيداً عن أعين الناس . وهناك نظرت طويلا إلى الخضرة ونحن جالسان وثالثنا كلبنا يحوم ويلف حولنا وكأنه سعيد بنا ، فرح بحبنا .

نظرت إلى يحي فوجدت في عينيه شيئاً يشبه القلق . ولم يمهلني حتى قال لي على الفور .

— أنا زعلان خالص ياحبيبتي وخايف أقولك تزعلي إنت كمان لكن أنا موش عايز أزعلك طول حياتي إن شاء الله .

فقلت وقد علت دقات قلبي :

فيه إيه يايحي ؟

— إنت خفت ولا إيه :

أبداً هي حاجة نصها يزعل ونصها يفرح وقال ضاحكا :

— استعدى واحد اتنين تلاته .

وأفضى إلى بالخبر . إذ كان لابد أن يسافر إلى سويسرا مدة شهر لإحضار آلات هندسية لعمله .

وسافر يحيى بالفعل وشعرت بعد سفره بفراغ هائل مروع فى حياتى وظلمة شديدة السواد أصبحت حياتى به كطفل يجد كل شىء إلا ثدى أمه أو كفتاة صغيرة تتمتع بكل شىء إلا عطف أمها وحنانها. أصبحت حياتى كصحراء قاحلة صفراء ليس فيها ماء ولا رواء فقررت أن أذهب إلى عزبتنا . فربما أن جوها الجميل أو هواءها العليل يريحان نفسى القلقة . ووصلت إلى هناك فى أقل من ساعتين . وهناك سلمت جسدى للأرض المكسوة بالخضرة وشعرى للهواء النقى الطاهر يعبثان بهما برقة وحنان كما يشاآن. وبالفعل استراحت نفسى كثيراً لهذا الهدوء البديع . وزادنى شعوراً بالراحة تغريد الطيور البريئة على الأشجار المزدهرة ، وحفيف الأغصان وحركتها وكأنها تتعانق أو تتهامس فى صمت وخشوع ورهبة .

وهناك سمعت فتى وفتاة من أهل القرية يتناجيان مرات ومرات فى صوت يشبهه الهمس — صوت حالم هادىء ساكن فى غموض كالقرية تماماً . ورأيته مرة يقبل يدها فى حرارة وهى ترتجف من الخجل وتتلفت يمنة ويسرة . فتظاهرت بالنوم العميق حتى أسمع ما سيحدث بعد ذلك . وكأن هذا الخجل والحياء الذى يكتنف علاقتهما التى كنت ألحظها من قبل هو نفسه مصدر حبى ومراقبتى لهما . ثم أرهفت سمعى جيداً فإذا هو يقول لها :

— الست شويكار نومها تقيل . وخصوصاً إنها جاية تستجم

بعد إلى حصل . فشعرت بحياء أثر فى نفسى وهز جسدى هزاً عنيفاً ولكنى تسمرت فى رقدتى وأنا أسمعها تقول له :

ــ لغاية كده ياسى حسن وكفاية . أنا صبرت كتير وانت تقول ليه نوبة له تجوز أختى ونوبة بعــــد جمع القطن . إنت بأه تعرف خلاصك . حأضطر إنى أجوز ابن عمى ياحسن ويبقى الحق عليك وذنبك على جنبك . ثم قالت وعيناها مصوبة إلى عينيه فى شبه تحد :

ــ هو انا لعبة فى إيدك ياسى حسن . حقيق أنا جاهـــلة ولانيش متعلمة ولاحتى الجراية والكتابة . لكن كل بنت حتى القطة تقدر تحرص على شرفها ياسى حسن . ثم افترقا وهو يرمقها بعينيه الحادتين وهى تعدو إلى بيتها . وكأن قبلة يدها هذه أصابتها بشبة لوثة . وهى تعدو هرباً إلى منزلها . ثم ذهب هو إلى حقله . وقمت وجلست وقد أسندت ظهرى على جزع نخلة مبتور . ولم يزدنى تجسسى على هذه المحادثة بينهما إلا كرهاً . لنفسى وضعفى . وبدأت أقطف من الخضرة فى حركة عصبية وألقيها بعيداً وقلت محدثة نفسى :

حقاً إن القطة تخجل وتتوارى بل ربما تغرس مخالبها فى عينى القط إن هو حاول الاقتراب منها .

إن هذه الأحداث التى مرت أمام عينى لخليقة بأن تجعلنى

أغير أفكارى وسلوكى فى الحياة . فهل كنت على صواب حينما سلكت هذا المسلك فى الحصول على زوج أحبه وآنس إليه ؟ .

عند هذا الحد تمنيت أن أدفن نفسى حية فى تلك الأرض فذلك أشرف لى من مجرد تصورى لحياتى العابثة المستهترة مع هؤلاء وأولاء من أصدقائى القدامى . ثم صرخ صوت ضميرى من الأعماق قائلا :

— إن هذه الأرض تخرج ذهباً . ولكنك عالة على المجتمع وعلى والديك بل ربما على أولئك الذئاب . فأنت وهم سواء فى الخطيئة . وربما كنت أنت الدافع الأكبر والأول . ثم صرخ ضميرى مرة أخرى يقول فى حدة :

— إنك إن حاولت الاسترخاء على تلك الأرض فربما نفرت وتقززت وتقلقت . فما بالك إن أنت دفنت هذا الجسد المدنس فى هذه الأرض الطاهرة الطيبة !!

عند هذا تحول حزنى ويأسى من نفسى ومن الحياة إلى دمعة كنت أحتفظ بها للمناسبات وما أكثر مناسباتى هذه الأيام . دمعة كانت الحل الوحيد لمثل هذه المواقف أو المآزق التى لا خروج منها ولا فرار . إنها لم تكن دمعة واحدة بل دموعاً صادقة لاذعة ساخنة وكأننى أكفر عن ذنوبى وخطاياى بهذه الدموع . بعد هذا انتاب عقلى تبلد وقتى وشلل جسدى عن الحركة . ولم أفق إلا على

كابى وهو يدور ويلف حولى ثم يستكين وينام واضعاً رأسه على رجلى فى أمان وخيل إلى وقتها أنه كمن أحس أنى فى حاجة إلى أن أسند رأسى على صدر قوى حنون فوضع رأسه على رجلى على أجد عنده شيئاً من العزاء . فوضعت يدى أنا الأخرى على رأسه أرتب بها عليه حتى أشعره بعرفانى للجميل .

ومع هذا لم أشعر بالراحة حين أخرجت من حقيبتى منديلا أجفف به دموعى ونظرت فى مرآتى . فياهول ما رأيت . رأيت الكآبة بعينها والحزن بعينه بل والندم المفضى إلى الهلاك وتمنيت أن أجد يحيى قبالتى حتى يعيد إلى وجهى نضارته وجماله وتزول تلك الغمة التى على صدرى فى غمار قبلاته الكثيرة اللذيذة المليئة بالحنان والحب . وابتسمت . وكان النهار يميل إلى الغروب . فتمنيت وأنا أنظر إلى قرص الشمس الدامى وهو يختفى أمام عينى رويداً رويداً أن أختفى مثله من هذه الحياة ثم أعود فأشرق من جديد كما تشرق الشمس فى اليوم التالى . وإذ ذاك فقط أستأنف حياة نقية طاهرة من الذنوب والآثام . وأعود شفافة نقية طاهرة إلى حبيبى . إنك ياشمس تختفين وتعودين فى اليوم التالى مشرقة ناصعة . فلم لا أكون مثلك . فاسعفينى أيتها الدموع البريئة وساعدينى على تصفية نفسى وروحى . ثم قلت :

أما يستطيع المرء أن يلقى بخطاياه كلها فى موجة بحر . ثم يخرج

منه طاهراً نظيفاً وإن كان به شيء من البلل الذى يشبه الدمع ينحدر من عينيه غزيراً فى ساعة من ساعات التوبة الكبرى ؟ ؟ ؟

لماذا يا إلهى خلقتنا ؟ لماذا يا إلهى خلقت السعادة وخلقت الشقاء ؟ لماذا خلقت الشقاء وأنت فى قدرتك أن تجعل الناس كلهم سعداء؟ أم ترى خلقت الشقاء لتمتحن عبيدك ؟ ذنوبى كثيرة يا إلهى ولكن لى أمل كبير فى رحمتك الواسعة . إنى يا إلهى أركع على قدمى فى محراب التوبة العظيم باكية نادمة ... أرجو رحمتك وآمل فى عفوك وأنشد رضاك فأنت القادر على الرحمة والقادر على الرضا . إننى أعدك يا غفور يا رحيم أن أبدأ صفحة جديدة نقية طاهرة ناصعة البياض .

ثم قمت ومشيت متخاذلة ومشى كلبى متخاذلا هو الآخر فى تخاذل وكأنه يحس بندمى . وحولنا الخضرة التى عشقتها لطهارتها ونضارتها . فامتدت يدى كعادتها وحبها للجمال أياً كان إلى زهرة من الزهرات . ولكن يا لسوء طالعى — لقد كانت ذابلة كالمرأة الوحيدة التى مات زوجها فانكمشت وانطوت على نفسها . فتوقفت عن السير قليلا ونظرت إليها بإمعان وتفحص ثم ألقيت بها على الأرض وواصلت سيرى . ولكنى توقفت فجأة واستدرت وألقيت عليها نظرة أخيرة وقلت لنفسى . إنها حقاً ذابلة تماماً وإن كنت فى طريقى إلى الذبول أنا الأخرى ! !

عند هذا الحد لم أتمالك نفسى مرة أخرى من البكاء بصوت فيه نشيج مكتوم فجلست على الأرض ودفنت وجهى فى راحة يدى وانتحبت بمرارة عميقة . وفى ذلك الوقت كانت الشمس قد غابت واحتمت فى الأرض . ولكنى لم أجد من أحتمى فيه . ولم أشعر إلا وصور من حياتى تمر أمام عينى فى شريط سريع يجرى بذهنى المتعب . حياة تافهة مملة . . . . صديقات عابثات وأصدقاء عابثون يأخذون منى أكثر مما يعطوننى .. لهو ومجون . . نفاق ورياء . . مناظر ومظاهر . وأخذ الشريط يمر مسرعاً إلى أن وصلت إلى يحيى الذى وصل معى إلى منتهى العطاء والسخاء فى الحب دون مقابل إلا الإخلاص . وانتابتنى نقمة على الدنيا التى أتعستنى وعلى كل شيء طاهر يجعلنى أوازن بين الطهر والدنس وما أقساها موازنة . يا إلهى كم ضاقت نفسى وأحسست أن شيئاً يجثم على صدرى وأدركت أن علاقاتى الماضية لم تكن صداقة كما يسميها المجتمع الراقى المزيف . فالرقى ليس رقى مادة بل رقى عواطف وأخلاق وأحاسيس . . . فأين الحب الصادق العفيف ؟ أين الإخلاص؟ أين الوفاء؟ أين الأحاسيس الرقيقة؟ أين سمو العاطفة والوجدان ؟ أين الروح النقية الطاهرة ؟ أين هذا كله من حياتى التى عشتها بين مجون وتهتك وخلاعة وتفاهة . وتمنيت أن أصرخ فى جميع بنات جنسى التائهات الشاردات مثلى وأقول لكل واحدة منهن :

— إبحثى حتى تجدى من تحبين ولكن لا تخوضى فى تجارب

قاسية لا تترك فى نفسك إلا الذكريات المرة والندم الكبير الذى يعصف بنفسك وحياتك ويعذبك ويسخر منك إلى الأبد. ثم لا تستطيعين الخلاص من الندم والذكريات المريرة إلا بعد مضغها فى شكل تنهدات عميقة وآهات مكتومة قد يتلاشى المرء بكيانه فيها من هول ضرباتها. ثم قمت أمشى وكأنى أحبو من كثرة ما أحمل على كتفى من أوزارى الماضية حتى وصلت إلى «الدوار» ودخلت بخطوات كئيبة وكأنى لا أتقدم بل أرجع إلى الوراء. ثم صعدت إلى حجرة نومى ودخلت وهناك وجدت أم وردة مازالت تنظم ملابسى وترتبها من أثر السفر وتضعها كعادتها بترتيب فى الدولاب الكبير. فالتفت إلى المرآة القديمة المعلقة على الحائط ونظرت إلى وجهى ومسحت عنه آثار الدموع. ولم أطق أن أرى وجهى وعيناى بهذه الصورة المحزنة المخزية بل القاتلة. فارتميت بين أحضان مخدعى وأحسست أنه ربما كان أكثر حناناً من أذرع الذئاب الآدمية التى كانت تنهش جسدى فى الماضى. وقلت فى سعادة :

— لكن ذراعا حبيبى أسمى من الحنان وهل يوجد ما هو أكثر وأسمى من الحنان ذلك الإحساس الخالد. فارتاحت نفسى وهدأت إلى تصور ذلك الحنان — الذى سأنعم به بقية عمرى.

ثم جاءت إلى أم وردة ومالت على ظهرى قائلة.

— بعد الشر عليكى يا بتى من الفكر. بكره ييجى بالسلامة.

فلم أرد عليها بل تمنيت أن تظل تردد « بكره ييجى بالسلامة » وحين لم تسمع منى جواباً . جلست كعادتها تدلك لى ظهرى المتعب وتحاول جاهدة أن تصرفنى عن التفكير فى أى شىء وقالت :

— يا له يا ستى اغسلى وشك والبسى قميص نوم . وتعالى نقعد فى « القاعة » شوية لحسن بنات العزبة بحالهم والنبى بيسألوا عليكى إنت عرفاهم . مبيشبعوش من الأعده معاك .

فأشرت إليها أن تستمر قليلا فى تدليك ظهرى الذى امتص الرطوبة من طول جلوسى على الخضرة . ووعدتها أننى سأرتدى ملابسى كما أرادت وأنزل حتى نجلس سوياً نتناول عشاؤنا مع بنات قريتنا . وهممت أن أقوم لأغسل وجهى ولكنها وضعت يدها على جبهتها متذكرة شيئاً ثم قالت :

— نسيت والنبى أقول لك إن قمر بنت ناظر العزبة عايزاكى علشان حاجة مهمة جداً على حد كلامها .

فنظرت إليها وفهمت كل شىء وقلت لها :

— ما ألتلكيش عيزانى ليه وإيه الحكاية المهمة دية .

— لا أبداً مسألتنيش حاجــة . بس زى يعنى ما تكون خايفة شوية .

— طيب طيب هى حتيجى إمتى ؟

— فى العشى كده . ثم أضافت ضاحكة .

— علشان كان يسمعوا الراديو معاكى . ربنا ما يحرمهومشى منك . ثم خرجت وأغلقت خلفها الباب ففتحت حقيبة ملابسى مرة أخرى وفتشت فى أحد جيوبها حتى وجدتها . ووضعتها على المنضدة الصغيرة التى بجوار سريرى . وقد انتعشت نفسى قليلا وابتدأت فى خلع ملابسى وألقيت بها على السرير ووقفت فى المرآة أتأمل جسدى العارى إلا من بعض الملابس الداخلية وخيل إلى وقتها أنه قد نقص وزنى منذ سفر يحيى وبسبب الوحدة التى أحسست بها وذلك الفراغ الهائل الذى غلف حياتى بعده ، وتلك الذكريات الأليمة التى تلازمنى باستمرار .. وأحسست أنه أول يوم طويل مر على هكذا . بل ربما أطول من جميع أيام عمرى . لقد وصلت إلى منتهى العذاب . كل شىء فى يتعذب ويتأفف فى خنوع مع نفسى المعذبة . لقد كنت أعتقد أن منتهى العذاب كان فى تلك الليلة التى انقلبت العربة بنا معاً . ولم أكن أدرى أن مجرد مرور تلك الذكريات فى قلبي ونفسى هو أقصى أنواع العذاب وأشدها وأمرها . وقد لا يحتملها جسدى الصغير الجميل المتعب المثقل بالهموم فانكفأت على السرير وأغلقت عينى حتى لا أرى تلك الذكريات وأعود إلى أعلى درجات العذاب . ومع ذلك لم يكن هذا علاجاً . بل كان العلاج حين وقعت عيناى على صورة يحيى موضوعة على المائدة التى بجانب السرير . كانت الصورة كافية لمسح جميع آلامى ولم أشعر إلا ويدى تأخذها لأحتضنها بقوة وأعيدها إلى مكانها . هذه الحركة اللاشعورية التى



ولم أشعر إلا ويدى تأخذها ثم لأحتضنها بقوة . . .

صدرت من وجدانى وإحساساتى جددت الأمل فى نفسى أن أكون مخلوقة جديدة ونفساً جديدة وروحاً أسمى وأعلى مما كنت عليه . ثم لبست « الروب دى شمبر » مسرعة ونزلت على السلالم فى عجلة أكاد أقفز من فوقها وأنا أردد هذه الكلمات التى دارت فى نفسى :

— كل إنسان كل كائن حى يمكن أن يتعثر فى طريقه ويخطىء فى غرضه . ولكن الأقوى والأحسن والأسمى أن يتغلب على نفسه وعلى ذلك الخطأ .

ومشيت حتى وصلت إلى القاعة وهناك وجدت أم وردة وحولهـــا جمع من بنات العزبة يتجاذبن أطراف الحديث وعلامات السعادة بادية على قسمات الوجوه . وحين شاهدننى مقبلة نحوهن قمن من أماكنهن يصافحننى واحدة وراء الأخرى . وكنت أحس فعلا أنهن سعيدات بوجودى بينهن . ثم قالت واحدة منهن تدعى خضرة ، هيفاء كغصن البان فى وجهها براءة ممزوجة بجمال طبيعى تنم كل كلمة تقولهـا عن رضى وسعادة وحب للخير قالت لى وهى تعبث فى ضفيرتها المتدلية السوداء :

— ألف مبروك ياست على شبكتك .

— الله يبارك فيكى يا خضرة وانتى موش تتجوزى وتفرحينا بأه .

— آنى لا عايزه جواز ولا حاجة بس ربنا يخليلى أبويا

ثم قالت فى حياء وقد احمرت وجنتها :

— وهو بسلامته بيشتغل إيه ياست شويكار ؟

— بيشتغل مهندس ياخضرة

— فخبطت على صدرها فى سرور وكأنها عثرت على شىء هام.

— مهندس ياست . دى حاجة حلوه أوى . يعنى بكره لما تتجوزوا حبيبجى يهندس لنا العزبة .

فضحكت ولكن قاطعتنى أم ورده قائلة :

— والنبى ما ترديش عليها ياست شويكار لحسن دية الواحد حيعرفش يسكتها بعد كده أبداً .

ولكنها عادت وقالت فى شبه تنهد :

يارتنى ياست أتجوز واحد ياخدنى مصر وأعيش فى البندر هناك على طول .

فقلت لها مطمئنة :

— بس كده ياخضرة أنا حاشوفلك واحد من مصر وتعيشى هناك على طول فابتسمت راضية .

ولم أشعر إلا وأم ورده تمسك بطرف الروب قائلة :

— الخصلة إللى فيكى هى هى ، ليه يا بنتى ما ندتيش على أركب لك الزرار بتاع الروب قبل ما تلبسيه ؟

فلم أكد أرد عليها وأختلق لها من الأعذار ما يبرر إهمالى حتى لمحت قمر قادمة على وهى شاحبة الوجه مرتعشة اليدين

باهتة الشفتين مرتدية جلباباً طويلا فضفاضاً ومع ذلك لم يستطع أن يحجب جمال جسدها وتناسق رقبتها الجميلة وكأنها قاعدة عملت خصيصاً لهذا الوجه الحائر . وشعرها الفاحم السواد وقد تسلل جزء منه على أذنيها ومؤخرة وجنتيها حتى يزيدها رقة أو ليظلل على وجهها من كل غاد ورائح . أقبلت فى خطوات بطيئة متكاسلة على غير عادتها.ثم مدت يدها مصافحة وحاولت أن ترسم على شفتيها ابتسامة إشراق وسرور.وحيت الحاضرات ثم جلست على الأرض بجوار الكرسى الذى أنا جالسة عليه فى استرخاء . وبدأنا نسمع الراديو . وأنا أرقب قمر من آن لآخر بعين كلها عطف وحنان. ولكنها لم تلحظنى.فقد كانت شاردة اللب كاسفة البال حزينة وكأنها مخلوقة وحيدة فى وسط صحراء واسعة مترامية الأطراف وتلك الصحراء لاترحم شبابها الصغير ولا قلبها العاشق ولا ذاتها الضعيفة. كانت كورقة فى غصن تلقفتها تيارات الرياح العاصفة القاسية المدمرة . فبدت وكأنها فى مهب هـذه الرياح لا حول لها ولا قوة . لقد خيل إلى وقتها أن عقلها وجسمها الصغير لم يعد يحتمل التفكير . فكنت أكاد أبكى من فرط حزنى عليها . ولكنى هدأت من روع نفسى حين تذكرت أنهـا قالت لأم ورده إنها تطلب أن ترانى فى أمر هام . فقمت متعمدة من جلستى بين بنات قريتنا اللائى كن قد شغلن عنى تماماً فى سماع إحدى حلقات أضواء المدينة . فقمت من الصالة ومشيت حتى خرجت

إلى الشرفة ثم ناديت على قمر . فقامت مسرعة تجرى خلفى ولكنها توقفت فجأة فاقتربت منها قائلة :

— مالك ياقمر وقفتى كده مرة واحدة ليه ؟

— والنبى ياستى وقفت نوبة واحدة لجل رجلى وجعانى شوية أصلها نملت من القعدة .

فامسكت بذراعها وسرنا قليلا حتى وصلنا إلى آخر الشرفة فى الظلام وقلت لها :

— إنت سألتى أم ورده عنى علشان حاجة مهمة . فقوليلى بأه إيه الحاجة المهمة دية ؟

ولكنها سكتت وأطرقت إلى الأرض فقلت لها :

— أنا زى أختك ياقمر لازم تقوليلى على كل حاجة تعباكى .
غير أنها لم تتكلم وأحسست بها وهى تبكى وقطرات الدموع تتلألأ على وجهها فى نور القمر . فسكت عن الكلام حتى انتهت من البكاء ومسحت دموعها بطرف جلبابها ثم قالت :

— إنت زى أختى وأكتر ياست شويكار كلنا بنحبك علشان كده أنا موش حأخبى حاجة عليكى . علشان أمشى على نور .

ثم ابتلعت ريقها بصعوبة ونظرت إلى جيداً وكأنها تود أن تسمع المزيد من كلماتى التى تشجعها على الكلام والإفضاء بسرها لى فقلت لها :

— ما تخفيش ياقمر أنا لا يمكن أقول لحد أى شىء . كل اللى حتقوليه سر بينى وبينك .

وفعلا بدأ على قسمات وجهها شىء من الارتياح ثم قالت :

— أصدى أقول يعنى . ثم تلعثمت وقد انكسى وجهها بحمرة الحياء ثم أكملت :

ياست شويكار إنت متعلمة ومتنورة وتعرفى كل شىء يعنى عن اللى بيسموه يعنى اللى بيسموه الحب بين راجل والبنت. فقلت وقد فهمت كل شىء ولكنى تظاهرت بالغباء بعض الشىء :

الحب ده حاجة كويسة جداً لازم البنت تحب أبوها وأخوها وأختها . . . ولكنها قاطعتنى قائلة :

— موش حب الأخ لأخته ياست . لكن مثلا حب البنت لراجل غريب عنها خالص فقلت لها .

— آه حب البنت لراجل غريب متعرفوش .

ثم قاطعتنى ثانية قائلة :

— يعنى اللى يبأه القصد منه الجواز. أصل الحكاية ياست . إنى بأحب حسن المزارع الطويل اللى بيشتغل فى المصنع بتاع الحليب . واتفقنا على الجـــواز . لكن هوه عمال يأجلنى بأجلنى بحجج كتير . وأنا أرفض كل العرسان إللى بيطلبونى من أبويا . لكن أبويا قال لى إمبارح والشرر كان يتنطط من عينيه

إنت يابنت حتمشى كلامك على ولا إيه . والله العظيم تلاته لأنا مجوزك فى ظرف أسبوع واحد من الراجل اللى يعجبنى ما بآش إلا انت على آخر الزمن تتحكمى فينا وتمشى رأيك علينا . ثم نظرت إلى الأرض فى حياء بالغ . فأرهفت أذنى جيداً فسمعت صوتاً من أعماقى يقول فى سرور :

هذا هو يومك لكى تعملى شيئاً تـكونين به جديرة أن تحيى فى هذا المجتمع . يجب ترشديها إلى الطريق المستقيم . لا تـكونى كالنار لو اقترب منها أى فرد فقلما يخرج وفيه بقية تصلح للحياة المستقيمة .

ولـكنى حدثت نفسى قائلة .

لا لا أنا لم أحرق أحداً إلا شخصى ونفسى . فسمعت صوتاً لا أدرى مبعثه يقول لى :

إن نفسك ليست ملكا لك . إن هذا الغلاف الجسدى ليس له الحق أن يتحكم فى ماتسمينه نفسك و تنسبينه إليك . إن هذه ليست عربة أو سواراً أو حذاء تملـكينه . إنها نفس أسمى وأرفع وربمـا أطهر .

كل هذا مر بى فى لحظات وهى واقفة قبالتى سارحة لا تركز بصرها على شىء . فقلت فى نفسى وقد جمعت بقية إنسانيتى المبعثرة :

يجب أولا أن تعرفى إن الرجل إذا كان أحب فتاة فلا يمكن أن تقف فى وجهه أى عقبات . لذا فأنا أقول لك إنه لا يحبك . ولكن ربما أنت تكونين قد أحببتيه . لذا يجب عليك أن تتمسكى بعفافك مهما حدث ، يجب أن تقاومى هذا الضعف الذى أنت فى طريقك . إليه سوف تتعبين أول الطريق وتتعذبين ولكن تماسكى حتى يتغلب صوت ضميرك على رغبتك . حقاً إنك جاهلة ولكن لاداعى أن تذهبى للجامعة أوالمدرسة لكى تعرفى أنه يجب على الفتاة التمسك بقيمها وعفافها . أنت هنا أحسن وأرفع من كثيرات فى الجامعة . وأخيراً نصيحتى إليك أن تحافظى على نفسك حتى ولو جاء إليك يحبو على الأرض بل إجعليه يجىء إليك وهو رافع رأسه طالباً أياك من والدك .

لا لا وألف لا . لا تلطخى جبينك فى التراب وسيكون من العسير عليك غسله بعد ذلك . كل هذا دار فى نفسى ثم توجهت بالكلام إلى قمر وإسداء نصيحة إليها تنم كل ما دار فى نفسى من هذا المعنى

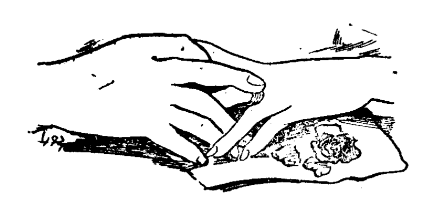
وبعد أن انتهيت من كلامى معها قالت وهى مشدوهة زائغة العينين وقد خبطت بيدها على صدرها البكر :

— يعنى أبويا يبقى له حق والنبى ياستى أنا قلبى حاسس إنه فاهم كل حاجة وسايبنى كده علشان أتعلم وآخد درس .

فقلت لها :

— طبعاً معاه حق لازم تسمعى كلامه وكلام والدتك ياريت كل البنات لها أب وأم ينصحوهم .

ففكرت قليلا ثم ابتسمت وكأنها ارتاحت إلى كلامى هذا . وسرنا سوياً . ودخلنا القاعة مرة أخرى فوجدنا جميع البنات فى سبات عميق والراديو ما زال مفتوحاً . فتركتها وطلعت إلى حجرتى ونمت نوماً عميقاً مريحاً وكنت أعرف تماماً مصدر راحتى .



الفصل الخامس

استيقظت فى الصباح مبكرة على غير عادتى وارتديت (جونلة) وبلوزة شبيهة بالقميص الرجالى وحذاءاً مريحاً وقد صففت شعرى فى ضفيرتين طويلتين. ونظرت إلى نفسى فى المرآة وقلت لو رآنى يحيى لما عرفنى.

إنى بهذه التسريحة وبدون مكياج أبدو صغيرة جداً. وتمنيت وقتها أن أكون بالفعل صغيرة بل وأن أظل فى هذه السن إلى الأبد لا أتقدم ولا أكبر وأصبح شابة فتية نضرة. إن للطفولة راحة وبراءة تشتهيها كل نفس. ولا يشعر بحلاوتها إلا من هم مثلى. ولكن طردت كل هذه الأفكار الصبيانية من مخيلتى حين وقعت عينى على صورة يحيى بابتسامته الجذابة التى أستشعر فيها الهدوء والراحة والاستكانة والسير فى الطريق المستقيم. مادمت معه. ونزلت مسرعة وتناولت إفطارى بشهية. كنت آكل كل شىء. البيض والقشدة والفطير والطماطم والجرجير. آكلها وأنا أشعر أنها طاهرة لم تعبث بها أيدى الباعة مطلقاً ولم تنتقل من سوق إلى سوق. ومن يد تاجر إلى يد بائع حتى تصلنى ذابلة كما تصلنى وأنا بالقاهرة.

هكذا طبيعة البشر فى كل شىء. فى النساء والفاكهة والورود و... وبهذا الشعور ازدادت شهيتى فى القرية عنها فى القاهرة وقلت لنفسى ـ مسكين يحيى. هل ياترى يعرف عن حياتى شيئاً أو عن ماضى

وعن مبادئى المنحلة وعن أخلاقى المبتذلة التى كانت تلازمنى قبل الآن . ورددت على نفسى : طبعاً لا بد أنه يعرف ولو شيئاً قليلا عنها . ثم انتهيت من إفطارى وفتحت حقيبة يدى لأشرب سيجارة . ومالبثت أم وردة أن جاءت هى الأخرى . ولم تتهاون فى أن تأخذها من يدى بالقوة وترميها بعيداً ثم تظل طول النهار تشبعنى نصائح يضيق صدرى لها ، ولكنى عمدت إلى سيجارة أخرى ولم يرانى أحد إلى أن انتهيت منها وأطفئتها . ثم وضعتها على حافة الطبق ووضعت فوقها بعض أوراق الجرجير حتى لا تظهر . وبعد برهة سمعت وقع أقدام أم وردة . ثم جاءت إلى قائلة :

— فطرتى . عجبك الفطير يا بنتى ؟

— أيوه يا داده حلو خالص ولذيذ موت .

— طيب الحمد لله إنه عجبك ده أم قمر هى اللى عملاه وكانت خايفه لحسن ميعجبكيش .

ثم نظرت ونظرت إلى الجو المعبأ بالدخان ودققت النظر فى الطقطوقة الموضوعة على المائدة . ثم أسرعت وفتشت طبق . وكانت الطامة الكبرى . ثم تفرست فى جيداً .

— كده تعمليها . فى وسط الفلاحين يقولوا إيه . حتستفادى إيه يا بنتى من التعفير ده ؟ ؟

فأشرت عليها بلهجة غاضبة حتى لا تستمر فى انتقاداتها وملاحظاتها وتكف عن الكلام .

ولكنها رسمت على وجهها أمارات التعجب وقالت :

— إنتى يا بنتى بتشخطى فيه . ده أنا زى أمك ده أنا مربياكى على إيديه . أنا بأنصحك علشان الحاجات دية موش كويسة . وكان سى يحيى يزعل لما يشوفك بتشربى سجاير .

وعرفت أنها لن تكف عن الكلام والنصائح . وأردت أن أغير الموضوع وأعرج إلى موضوع آخر فقلت لها وكأنى عثرت على السؤال مفاجأة أو جاء فى مخيلتى عفواً .

— إلا قوليلى يا أم ررده إنت لك بنت إسمها ورده حقيقى ولا داه إسمك إنت .

وبالفعل توقفت عن الكلام وظلت برهة بدون أن تتكلم ففرحت من قلبى وقلت إنى حقاً أجيد تحويل مجرى أى حديث ببساطة ولكننى لم أكد أفرح حتى قالت فى شبه حزن دفين عفى عليه الزمان فذابت وتلاشت مظاهره وبقى أساسه وأسبابه فى أغوار بعيدة بعيدة لا تعرف هى نفسها مداها . وقالت :

— أيوه يا بنتى كان عندى بنت اسمها ورده .

قالت هذه العبارة بكل ما فى حنان الأمومة من تعبير . قالتها

وقد أغرورقت عيناها بالدموع . ثم استطردت وقد أثارت اهتمامى فأشرت عليها أن تجلس حتى تقص على قصتها . فجلست وقالت بتؤدة وبطء وذهبت بخيالها إلى الماضى البعيد :

ـــ كانت جميلة زيك يا بنتى كده . قوام إيه وخلقه إيه وشعر لغاية كعب رجليها . وكل الناس يابنتى شياطين قليل متلاقى حد ينصحك لنفسك وقلبه عليكى . النهاية بأه يا بنتى ماطولش عليكى . الناس غروها قوى وكل واحدة أصبحت خايفة على بناتها ليبوروا وميجوزوش جنب بنتى . فطلعوا فى دماغها إنها لازم تتعلم فى مدرسة وتسافر مصر وتكمل تعليمها . والبنت المسكينة صدقت كلامهم وقعدت تقول لازم أتعلم يا أمه لازم أتعلم علشان أعرف أقرأ وأكتب . وما كنش عندى مانع طبعاً كل أم تحب إن بنتها تكون أحسن ما فى الدنيا . ودخلتها مدرسة إلزامى لغاية ما تفك الخط كويس وتستأرى كويس فى الجرنال زى البمب . وقلت كفاية لغاية كده علشان تجوز ابن عمها أو ابن خالها أو أى حد من أقاربها . لكن ياخسارة يا بنتى الغرور ركبها . وما مفيش فايدة صممت على التعليم علشان تأخذ ابن العمدة المحامى . وياما نصحتها وقلت لها يابنتى ما فيش فايدة العين متعلاش عن الحاجب موش ممكن يخدك . إحنا ناس فقراء ولكن هم ناس غناى قوى . كانت يابنتى ترد على فى غرور وتقول

حقيق هم ناس أغنيـة أنا معاك يا أمى لـكن كلهم وحشين موش حلوين . بق فيهم واحدة زى بنتك . وابن العمدة ياءه عايز جمال موش عايز مال . علشان كده أنا راح أتعلم . وفضلت يابنتى على ده لغاية ما راحت الثانوى . وابن العمدة موش حاسس بيها والعرسان كلهم اتجوزوا وفضلت هى ياحبة عينى ياحسرة قلبى عليها . نرجع مرجوعنا آه للثانوى . وهناك المدرسات والبنات غروها كان وكان. وفى الروايات اللى يعملوها فى المدرسة يخلوها تـكون الملـكة أو الأميرة أو البنت الفقيرة الجميلة اللى حبها الأمير واجوزها .

كانت تقول هذا الكلام وهى سارحة فى المـاضى البعيد . وكنت واثقة أنها تـكلم نفسها وتروى لها القصة أكثر من أنها ترويها لى وكان كلامها بدون أى تعبير وكأنه شريط سينمائى تراه ثم ترويه لى .

وسكتت برهة عن الكلام وكأنها تسترد أنفاسها وتسترجع ذكريات المـاضى الدفين . ثم قالت :

وحبت يا بنتى تطبق الروايات على نفسها. فكانت يا كبدى عليها تحوش مصروفها علشان تجيب الأحمر بتاع الضوافر والأمشاط وزيت للشعر . وكانت ياحبيبتى يا بنتى ذوقها جميل عشان متعلمة ومتنورة وبتشوف وبتسمع وبتقرا كتير لغاية لمـا عينها توجعها . ولما كنت أقول لها حاجة . تقول كل ده ياماما علشان أكون مثقفة.

فكنت بأسكت لأنى عرفت إنه ما فيش فايده من الكلام . وقلت آهى تتعلم وياصابت ياخابت . لكن يا بنتى الأدهى من كده إنها كانت بتعمل كل ده عشان ابن العمدة بيحضر الحفلات ديه . والمدرسات بيتلموا حواليه ويحبوها علشان يسلم عليها . فكانت المسكينة تحبه أكتر وأكتر وتتعلق بحبال الهوا الدايبة . كان دايماً يا بنتى يقولها : إنت خسارة فى الريف إنت عايزه مصر . فتفتكر إن كلامه ده وعد بأنه هو اللى راح ياخدها مصر . ومكنش هو بس لالا ـ كل البلد بحالها تقول لها كده . الدكتور بتاع الصحة ومساعدينه والمدرسين والنظار وصاحب الأجزخانة . ما فيش حد إلا لما قال لها : إنت خسارة فى الفلاحين وعايزه البندر . لكن مكانوش يعرفوا هم أد إيه بيضروها . لأنهم عارفنها فقيرة مين فيهم راح يتنازل ويأخدها مصر . ويفتح لها بيت . صحيح هى بتطلع لأكبر منها . لكن هم كان عايزين أكبر منها ومنهم . وفعلا كل راجل راح اجوز بنت غنية ومن عيلة فى مصر على أساس إنه صغير وبكره يكبر ويبقى له مستقبل . وده يا بنتى اللى كنت أنا متأكده إنه راح يحصـــل . ثم قالت وبها حسرة وضعف ويأس :

لكن يا بنتى ما كنش فيه فايده أبداً فيها . كانت راسها ناشفة وعنيده وافتكرت إن المدرسة والتعليم بالنسبه لها كل شىء . وأنا أمها ياما نصحتها كثير زى ما سمعت منى دلوقت .

ثم نظرت إلى بطرف عينها وأشارت إلى بيدها قائلة بصيغة التهديد :

— يامه نصحتها كتير زيك برده كده . كانت ما تصدقنيش أبداً واللى فى راسها هو هوه .

ولكنى كنت فى ذلك الوقت فى لجة من التفكير وأود أن أعرف نهايتها فقلت لها :

— كملى يا أم وردة كملى وبعدين حصل إيه ؟

فقالت وقد تنهـــدت بعمق وكأنها تلفظ شيئاً ثقيلا من صدرها :

مستعجلة على إيه أنا راح أكملك من نفسى كل حاجة . بس ياريت تتعلمى وتسمعى كلام الأكبر منك .

ثم قالت وكأنها امرأة محكوم عليها بالموت تتكلم وهى زاهدة فى الحياه بأجمعها ؛

النهاية فضلت على كده لغاية ما جه اليوم اللى ابن العمدة خطب فيه . كان يوم شؤم بعيد عنك وهى يا كبدى يابنتى ياحبة عينى سمعت الخبر من المدرسة وأخذت فى وشها من غير استئذان وجت على الدار جرى وهى لونها أصفر زى الكوركم ودخلت على ، أنا فاكره يابنتى كويس كنت باعجن لها فى فطيرة علشان كانت تحب الفطير أوى زيك تمام ، دخلت وقالت كلمة واحدة لسه بترن فى ودنى زى المطرقة ؛ قالتها زى ما يكون لبستها حاجة وحشة

بعيد عنك مرجعتش زى ماكانت أبداً . وأنا كان تهيأ لى أن عقلها جرى له حاجة من يومها .

فقلت لهـا وأنا فى شوق ولهفة إلى أن أعرف ما الذى قالته ولكنها لم تمهلنى .

فقالت والدموع تتساقط من عينيها فى غزارة وتتجمع عند ذقنها . ثم تسقط على صدرها كأنها سيل جارف يهدد هذا الصدر بالغرق . فكان هذا المنظر الأليم يزعجنى . ثم استطردت قائلة :

— دخلت على وقالت يا ماما سمعتى خبر إن عمر خطب ؟ واندارت بعدما ضمتنى إلى صدرها بقوة جنونية . ودخلت حجرتها وأغلقت الباب بالمفتاح .

عند هذا الحد أغلقت أنا عينى . أغلقتها حتى لا أرى أم ورده فى كآبتها الخرساء الداكنة التى لم أرها فيها من قبل . ومرت فترة صمت قصيرة ولكنى أحسست فيها بالتلاشى من هذا العالم . ثم ضاق صدرى واسودت الدنيا فى عينىّ المغلقة . ثم فتحتها لعلنى أرى الدنيا أخف ظلمة . ووقعت عيناى على أم وردة وقد وضعت على شفتيها الصفراوين ابتسامة أشد مرارة من ذكرياتها — ابتسامة غريبة .ونظرت إلى وقد زادت غرابة ابتسامتها وقالت :

— إنت زهقتى ولا إيه من الحكاية ، أنا موش راح أكملها على كده كفاية . باين عليكى تضايقتى .

ولكنى تنبهت من غفوتى وقلت لهـا على الفور :

أبداً يا أم ورده أبداً كلى هى لسة الحكاية فيها تكملة كان . فضحكت ساخرة ومضت فى حديثها قائلة :

— أنا يا بنتى إن جيتى للحق ماهمنيش إنه خطب ولا لأ . أنا همنى بنتى ضنايا الوحيدة . إللى ما عنديش غيرها . لا صبيان ولا بنات . قمت سبت العجين وغسلت إديه بسرعة . والأرض زى ما تكون بتطلع نار وحسيت إن الجو والصهد على وشى . لكن جريت بسرعة وحاولت فتح الباب مافيش فايدة . ورجعت أترجاها أحلفها إنها تفتح مافيش فايده . فين وفين بعد يومين فتحت الباب لأنها جاعت . وشفتها بعد اليومين دول اتغيرت ومرجعتش ورده بتاعت زمان . خست وكأنها لها سنة مأكلتش . نظراتها أصبحت زايغة . عنيها دبلو . لونها شحب ما تعرفهوش اصفر ولا إخضر .

ثم قالت وهى تشير بيدها وكأنها تبعد عنا شيئاً ضاراً :

— النهاية زى ما تكون كانت فى دور الأموات .

أنا اتحسرت من قلبى عليها وعلى شبابها . لكن حاولت أكلمها ما كنتش بتسمع حاجة . كانت سرحانه معرفش ولا إيه . قلت آخدها عند الدكتور مرضيتش . أنا كنت خايفة عليها . فطلبت الدكتور فى البيت وجه . وعندنا فى البلد محدش يطلب الدكتور فى الدار أبداً الناس ترحلوا معلهش . إلا لو كانوا ناس من البندر ولما حضر

البلد كلها عرفت وسألوا عليها . والدكتور قال مافيش عندها شيء أبداً ديه نفسيتها تعبانة . لغاية ما وصل الخبر المدرسة والمدرسات والبنات فى البندر . ويظهر كان فيهم شوية عارفين إنها كانت بتحب ابن العمدة عمر . فعدوك يابنتى فضحوها . والبلد كلها عرفت الحكاية وجم سمعوها من كلامهم الشيء إللى خلاها تتعذب زيادة وزيادة . لكنها اتحملت على نفسها وقامت من السرير وأنا فرحت أوى خالص . وقالت لى فى يوم من الأيام وكأنها أصبحت من غير قلب ولا شعور .

— ياما المهم عندى دلوقت إن كل المدرسة تعرف إنى مبحبوش أبداً . أنا لازم أثبت لهم كده لازم ثم . قالت :

— أهم شيء الكرامة يامه . أنا أصبحت من غير قلب خلاص لكن موش من غير كرامة . يامه كفانى الكلام اللى سمعته من البنات والستات وأنا عيانة داه لو أنا صخرة كانت إتفتتت ودابت موش وردة .

أما أنا فقد كنت متأثرة جداً وهى تقول لى هذا الكلام وقد أشفقت عليها وعلى ابنتها وردة التى لم أعرف بعد نهايتها ولكنها قالت لى بعد ذلك :

— كان يوم من أيام الربيع أول دخول الصيف بعد العيد والبلد كلها سعيدة بفرح العمدة وابنه والطبل والزمر بيرن فى دوار العمدة . وكنت مبسوطة خالص لأن عمر هيجوز وورده خلاص نسيته والتفتت

لدروسها . ورجعت صحتها زى ما كانت . لكن كانت كئيبة مأهورة من قلبها . ودايماً يابنتى كنت ألمح فى عينها آثار دموع كتيرة . وماكنتش عارفة إن القلب إللى يحب عمره ما يكره فقلت لهـا :

ياورده ياسمينه يافلة ياريحان . أصلى كنت بادلعها دايماً كده وقلت لها بقلب واجف مأهور :

— إنت حتروحى بيت العمدة الليلة ولا لأ ؟

فردت بسرعة وكأنها مستنية السؤال ده :

طبعاً يامه لازم أروح . أمال مارحشى علشان يفتكروا إنى لسه زعلانه وباحبه .

فاضطرت إلى السكوت ولبست هدومى وأنا يابنتى مدهولة من الفكر فيها وفى حالتها هناك . لكن لبست ولبست هى وحطت لأول مرة أحمر وأبيض فى وشها وكان لعنها شكل غريب ورحنا هناك وقعدنا بين الستات والبنات بتهيص والطبل والرق فى إيديهم وعمالين يغنوا زى ما نكون فى مولد . وأعدت وردة بين صحباتها وأنا قعدت بين الستات . لكن كان قلبى وعينى وعقلى معاها . ومن وقت ما دخلت وهى تضحك بسبب ومن غير سبب وبصوت عالى كأنها عايزه تسمع الناس كلهم . وبعدين قامت كل بنت ترقص بدورها فى الحلقة وبنتى قاعدة تصفق مع البنات وتضحك بسبب وبدون سبب لغاية ما العروسة جت والعريس

وأعدوا فى الكوشه . الحق يابنتى ابن العمدة كان زى البدر فى الكوشه . عينيه فى خضار البرسيم وشعره لون الدهب . وطول بعرض زى ما يكون أمير . لكن هو جه من هنا وديه راح لونها زى اللمونة والعرق اتصب منها وطبعاً محدش حس بها غيرى . والناس المعازيم فضلوا فى هيصتهم والبنات ترقص وبنتى ترتعش وجسمها يهتز وسنانها بتخبط فى بعضها . وقمت جرى علشان ألحقها ورحت لغاية عندها وقلبى هينخلع من صدرى وعقلى زى ما يكون تاه منى وقلت لها :

— إيه يابنتى مالك حاسى على صحتك . إيه فيه إيه ياله بينا نرجع البيت لكنها سبتنى واقفة ومشيت بعيد فى وسط الزحام إللى حوالين الغوازى ورجعت أنا مكانى وكل عقلى معاها .

ثم سكتت أم وردة هنيهه . . . وقالت وهى تتنهد بعمق :

وبعد ما الغوازى خلصوا ولموا النقوط من المعازيم رجعوا البنات لرقصهم . فرحين بابن العمدة وإكرام للعروسة الجديدة . وقامت البنات كلها واحده واحده لغاية ماجه الدور على ورده .

ثم استطردت وكأن إبر غرست فى جنبات قلبها .

جه عليها الدور وياريت ماجه أبداً . قامت ودخلت وسط البنات ترقص وترقص وكأن ما فيش حد حواليها . وكأن ودنها انسدت وكان لونها بيصفر والعرق بينزل بكثرة منها . والحق

يا بنتى كانت بترقص أحسن من الغوازى نفسهم . وخلتهم يبصوا عليها وهم مستغربين على رقصها . وفضلت تقرب من ابن العمدة وعروسته شويه يشويه . وعند كده وابتدأ المعازيم يكلموا . واحدة تقول :

— شوفى يا أختى الجرأة بتاعتها بتكايد فى العروسة عينى عينك . وواحدة تانيه تقول .

— أصلها فاجره كانت بتحبه وشوفى ياختى مش آدره تحوش نفسها . وثالثه تقول :

— أصلها تربية مدارس ومتكبرة مافيش حد مالى عينها إلا سى عمر . وورده العين تعلى على الحاجب ؟

وهنا يابنتى حسيت ان البيت بيلف بيه من كلام الناس . وناديت عليها ياورده ياورده . مردتش على . والعمدة نفسه نادى عليها فالتفتت وبصت عليه كويس ودمعة نزلت على خدها . وسقطت من طولها أدام رجليه . فالتفوا المعازيم حولها واترميت أنا عليها وأخدتها فى صدرى وملأنى الخوف والفزع من شكلها ...

ثم سكتت أم وردة وكأنها تسترد أنفاسها . فقلت لها بشوق لمعرفة ما الذى حدث بعد ذلك :

— وبعدين يام ورده حصل إيه جرى إيه ؟ ؟

إذ ذاك انسابت على خدها دموع ما زالت تتجمع عند ذقنها وتسقط على صدرها حتى ابتل صدر جلبابها تمـاماً ، وخيل إلى وقتها أنى لو وضعت يدى على صدرها أتحسس ذلك البلـل لوجدت له لسعة كلسعة ماء النار . لسعة قاسية مرة تماماً كلسعة ذكرياتها التى تدق فى رأسها كناقوس الـكنيسة . لهذا لم أملك زمام نفسى من أن أحتضنها بقوة وقد انهمرت دموعهاالـكثيرة . وقالت بصوت أشبه بصوت الملائـكة :

راحت يابنتى وأخذت معها روحى وكل أفراحى . راحت يابنتى وهى بتقول آخر كلام لهـا .

معلش يامه كده كويس . سمحينى يامه . سامحينى يامه .



الفصل السادس

كان اليوم العاشر لى فى العزبة كافياً مع هذا الجو الجميل الساحر الربيعى وتلك النسمات الحانية التى كانت تهدهد جسدى فى نشوة . نعم . . كانت كافية لراحة نفسى وهدوئها . . وقد حاولت جاهدة أن ألهى نفسى قليلا عن التفكير فى يحيى بقدر استطاعتى . ولكنى فشلت فكيف لا أفكر فيه ؟ كيف يفارق خيالى ؟ وكيف لا يلازمنى طيفه ولا يتبعنى ؟

كيف لا أفكر فى يحيى زوج المستقبل ؟ فى حياتى فى شبابى ومنتهى غايتى . إنى أحبه وكيف لا أحبه ؟ إنى أعبده وأتمنى لو قضيت العمر كله راكعة تحت قدميه أقبل يديه ووجنتيه وشفتيه . . . أحنو عليه كما تحنو الأم على طفلها . . . أواه لقد اشتقت إليه . . يا له من شوق عارم وحنين صارخ . . . اشتقت إلى ضماته وقبلاته . اشتقت إلى حديثه العذب . وكم أتمنى أن أفنى جسدى وروحى فى جسده وروحه . أجل إنه حبيبى وغايتى إنه مناى . إننى أحيا بحبه وأعيش له ومن أجله . إن كل ذرة من ذرات جسدى تنادى عليه وتدعوه أن يسرع ويسرع ويرجع إلى حبيبته إلى خطيبته إلى صنو روحه وتوأم نفسه . يحيى إنى أتعذب وأنت بعيد عنى . . . ولكنى أجد فى عذابى من أجلك لذة تفوقها أى لذة . ومع كثرة أشواقى إلى رؤيته إلى هذا الحد شعرت فجأة بضيق فى صدرى .

ضيق مفزع يملأ جوانب نفسى . لقد عشت فترة غيابه عنى مع أفراد لا أشعر لهم بوجود حتى تعبت وأرهقت أعصابى وعقلى . فانقلب حبى إلى تفكير متواصل . وكرهت حبى وكرهت وجودى وقلت محدثة نفسى :

ما معنى الحب ؟ إنه خرافة كبرى . إنى أتعذب بسبب بعده عنى . فلو لم أكن أحببته ما كنت تألمت هكذا . ليتنى لم أعرف الشخص الذى ملأ قلبى وعذبنى !

وبعد يومين آخرين شملنى الملل والضيق . فإن شوقى ليحيى جعلنى أشعر بهذا الشعور . فقررت أن أعود إلى القاهرة فوراً — إلى أبى الذى أوحشنى فى هذه المدة وأمى وإلى بيتى وحجرة نومى وأصدقائى . وفى اليوم التالى كنت عائدة إلى القاهرة الساحرة مع أم وردة وكلبى العزيز وبعض أصناف الطعام التى أوصتنى بها أمى .

وفى أثناء رجوعنا كانت أم وردة كالعاده تجلس خلفى تسدى إلى النصائح فى القيادة باتزان تقول لى فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة ثم تستطرد وهى تتثاءب :

— والنبى يابنتى إنت لازم تحطى مصحف فى درج من أدراج العربية . أو أقول لك أحسن آية الكرسى ديه . والنبى يابنتى تحرسك من أى شىء وحش ، فكنت أوافقها وأنا أنظر إليها بين آن وآخر فى مرآة العربة وقصة بنتها وردة تمر فى خيالى وكأنها فيلم سينمائى

أراه أمامى فكنت أشفق عليها وأتعذب بعض الشىء لأجلها . إلى أن وصلنا إلى القاهرة سالمين وأم وردة فى سبات عميق والكلب هو الآخر فى نوم أعمق . وهناك أوقفت العربة وأيقظت أم وردة . وتمنيت وقتها أن أطلق عليها أى إسم آخر غير أم وردة حتى لا أتذكر ابنتها الراحلة شهيدة الحب والغرام . فقامت من نومها تردد :

خير إن شاء الله إيه فيه إيه يابنتى . لقد كانت مذعورة فهى لم تكن تثق فى قيادتى مطلقاً لأنها تعتقد أن قيادة العربات خلقت للرجال فقط . ثم تقول فى تنهد وتعجب :

اللى يعيش ياما يشوف .

ثم تركتها ودخلت مسرعة إلى بيتنا فرحه مرحة . إنه بيت الطفولة وفيه أود أن أقبل أى شىء أقبله وأحتضنه حتى ولو كان نباتاً أو أى قطعة أثاث . ثم جريت قاصدة حجرة مكتب أبى ونظرت إليه من خلف الباب الزجاجى فوجدته منهمكا فى الكتابة . ففتحت الباب بهدوء وحرص ودخلت بخفة وتقدمت خطوتين . ولكنه رفع رأسه من على المكتب وقد اضطرب قليلا وقال :

— هو إنت ياعفريته تعالى تعالى وحشتينى . وفتح ذراعه وهو يمطرنى بقبلاته الأبوية .

حقاً إنه شعور رائع حين أندس بين ذراعى والدى وأتحسس وجهه ووجنتيه الممتلئين وأتنسم رائحة حنانه الأبوى الخالد وقلت له بعد أن أشبعت قلبى ونفسى من هذا الحنان :

— وإنت كان يابابى وحشتنى أوى إنت وماما . هى فين ؟

فقال لى وقد أشار لى بيده إلى أعلى :

أمك فوق نايمة شوية علشان عندها شوية مغص من أكل الكعك . ثم أضاف بشىء من الحنان مرة أخرى :

—ولو إنها يابنتى ما أكلتش كتير. دول كعكتين يادوبك كلتهم مع عمتك النهارده .

فقلت له :

هو برده يابابى الكعك يتاكل قبل العيد . علشان كده لو كانت أكلته فى العيد ماكانش حصلها شىء .

فضحك من قلبه وأشار مهدداً بأصبعه .

— إنت عفريته من يومك . تموتى فى حاجة اسمها هزار .

وسكت فاستأذنت منه لكى أطلع أسلم على زوجته ومشيت . ولكنه أوقفنى فى منتصف الحجرة وقال :

— أنا ياشويكار بأحضر بطاقات المعايدة من النهارده.وفاضل على العيد يومين . علشان كده أنا موش عايزك تنسى تعيدى بالتليفون على الدكتور وعلى عمتك كان لحسن يزعلو . الدكتور

تعب معانا وعمل كل ما فى جهده . وأنا شخصياً كنت بأعرف والده زمان الله يرحمه . لكن ماشفتش إبنه بعد ما اشتغل كتير . أذكر مرتين أو تلاته على الأكثر . وشوفى الصدف خلتك تروحى عنده فى المستشفى وتقعدى مدة تحت رعايته .

فمر بخاطرى فى سرعة صورة الطبيب وقلت لأبى :

— يعنى حضرتك يابابى تعرفه من زمان ؟

— أبوه يابنتى أعرف أبوه أكثر منه . كان صديق حميم لى

قلت له :

— كان بيشتغل إيه ؟

فرد وقد سبح فى خيال بعيد . وكأنه تذكر شيئاً هاماً :

— تعرفى كل التبلوهات الجميلة ديه . والده الله يرحمه هو اللى رسمها . فنظرت إلى إحداها وكانت معلقة على الحائط . وأنا أفكر فى الدكتور وقلت فى نفسى :

— حقاً إنه فنان ابن فنان لقد كان خليقاً أن يعيد إلى وجهى جماله الطبيعى وشعرت بشىء من الحنان الدافىء يتسلل إلى قلبى وأحسست بشىء من امتلاء الفراغ الذى فى حياتى وقد بقى أكثر من أسبوعان على مجىء يحيى .

ثم استدرت وطلعت مسرعة على السلالم المفروشة بالبساط

الأحمر الجميل . وفتحت حجرة أمى فوجدتها جالسة فى السرير تتناول بعض العقاقير .. وحين رأتنى ابتسمت فاقتربت نحوها أقبلها وسألتها :

— مالك يامامى فيه إيه أمال الشباب راح فين ؟

— والنبى يابنتى إنت بتعملى حس فى البيت علشانك إنت أنا حاخف خلاص .

ثم سألتنى عن الأشياء التى أحضرتها وجلسنا نتسامر قليلا عن الموضة فى هذه السنة وعن الألوان وعن العيد . ثم قالت لى :

ياشويكار إفتحى الدولاب حتلاقى حتتين قماش حلوين أوى . شوفى اللى تعجبك فيهم خديها . أنا لقيتهم فى الصالون الأخضر عجبونى .

فسبقنى الكلب إلى دولابها . وحاول كعادته أن يفتح الدولاب بأظافره أو يعمل أى شىء يساعدنى . كان فرحاً جداً بالعودة إلى بيتنا الكبير . فقمت وفتحت الدولاب وأخرجت من أحد أدراجه قطعتى القماش ووضعتهما على السرير وأنا أنظر إليهما جيداً . فقالت : خدى إنت الحتة إللى على أحمر وخليلى الحته إللى على إسود علشان ديه عواجيزى على أدى .

فقلت لها مستغربة :

— أبداً عجزتى إيه يامامى . إنت لازم تقومى علشان العيد

والناس إللى راح تيجى كتير . أنا مأعرفشى أعمل معاهم إيه .
ثم نظرت إليها بطرف عينى قائلة لها :

— خصوصاً عمتى أنا لو كان على موش عايزه أقابلها أبداً لحسن الواحد يسمع له كلمتين يعكروا عليه .

فضحكنا سوياً . ثم ودخلت حجرتى وكانت مرتبة ونظيفة ووقعت عيناى على صورة يحيى وكانت أم ورده قد وضعتها على (الكومودينو) كما كانت قبل السفر . ثم حولت نظرى إلى التليفون . وخطر ببالى فوراً أن أتصل بطبيبى وشعرت إنى مقصرة فى حقه بالفعل . وأمسكت التليفون بيد مرتعشة وأدرت القرص وقلت :

— الدكتور موجود من فضلك .

— لحظة واحدة ياهانم .

وانتظرت هذه الثوانى بقلب واجف ، ونفسى قلقة إلى أن سمعت الصوت مره أخرى .

— نقول له مين ياأفندم . ؟

— أنا شويكار . بس إنت قول له شويكار .

وفى الحال عاد الصوت وكان فى هذه المرة الطبيب الذى رد قائلا :

— مدموازيل شويكار . قالها بصوت مرتعش الذى وأحسست

أن فى صوته توسلا ورجاء كأنه يريد أن يقول شيئاً أكثر من مدموازيل شويكار . ثم سكت ولم أسمع إلا أنفاسه لاهثة متلاحقة . فأردت أن أقطع هذا الصمت فقلت له :

— أنا عارفة إنى غلطانة . أنا فعلا مقصرة يادكتور لكن والله الظروف . . .

إنت لك حق تزعل منى .

فرد بصوت كله حنان وقوة فى وقت معاً :

— لا لا أبداً أنا عارف ومقدر . لكن على العموم لو كنت عايزة تصلحينى تبقى لازم تيجى تزورينى وتزورى المستشفى كلها . موش كده ولا إيه ؟

قلت فى نفسى إننى سأشعر برهبة لو دخلت المستشفى مرة أخرى . غير أنى بادرت بالرد على الدكتور :

— أيوه يادكتور إنشاء الله . لكن إزى صحتك يادكتور ده بابى ومامى سألوا عليك كثير .

ولكنى لم أسمع جواباً . فتوقفت عن الكلام برهة . ثم قال فى صوت يشبه الهمس الممزوج بالعتاب :

يعنى قصدك تقولى إن بابا وماما همه اللى فكروكى بيه ؟ ؟

فقلت مستغربة وأنا أحاول أن أجعل فى عبارات صوتى كل معانى الصدق والتأكيد .

— أبداً والله موش معقول يادكتور . أنا بالطبع بأفكر فيك كثير .

ولكنى لم أكمل جملتى حين سمعته يقول بصوت جميل كله حنو وهو يبتهل إلى الله فى شيء يتمناه :

ياريت ياشويكار تكونى حقيقى بتفكرى فيه ياريت ؟

فلم أستطع أن أكمل عبارتى ولا أتبعها بأى عبارة بعدها ، وساد بيننا صمت يشوبه رهبة من نوع لم أشعر به من قبل واضطربت وتبلد تفكيرى عن أى شيء آخر . ولم تسعفنى بديهتى فى الخروج من هذا المأزق حتى قال :

— إوعى تكونى زعلت من كلامى . أنا حقيقى استعجلت لكن معلش سامحينى .

فقلت وأنا أبتلع ريقى :

— أبداً أزعل من إيه أنا قصدى أكلمك علشان أقول لك كل سنة وإنت طيب . وهنا قاطعنى :

— وإنت طيبة لكن داه معناه إنى موش حأشوفك . إنت بتسلمى على بالتليفون بس .

ثم قال بصيغة المرح والأمر معاً .

— إسمعى يابنت إنت . أنا الدكتور ولازم تفوتى على بكره الساعة خمسة علشان أشوفك . وأكتب لك على بعض الكريمات علشان تستعمليها . فقلت له وقد ارتاحت نفسى إلى طريقة كلامه وتحويلها إلى هذه الفكاهة اللطيفة :

— أمرك يا أفندم ولو إنى عنيدة لـكن إنت علمتنى لازم أسمع كلامك على طول بدون معارضة . علشان كده أنا راح آجى فى الميعاد بالضبط .

ثم ضحكنا سوياً . . . وعندما انتهت المكالمة ووضعت السماعة كنت أفـكر فيه وأستعيد قامته المديدة أمامى ، وعينيه اللتين بلون زرقة السماء وشعره الـكستنائى وجبهته العريضة التى تدل على ذكاء خارق .

ثم استلقيت على الفراش ولـكنى شعرت أنى فى حاجة إلى أن أخلع ملابسى ثم أستلق فربما أنام أو تغفو عينى قليلا فلا أنام بملابسى . فقمت وخلعت حذائى ثم ابتدأت فى خلع باقى ملابسى قطعـة تلو أخرى حتى بقيت بالقميص الداخلى . وفـكـكت شعرى هو الآخر حتى اتخلص من جميع الأربطة التى تشد جسدى وأتحرر منها جميعاً فإن هذا يريح جسدى تماماً . وتمددت على السرير وسبحت بعقلى عبر البحار حتى وصلت إلى سويسرا ويحيى . وشعرت بشوق مفاجىء إليه أطار بعقلى وجعلنى دون أن أدرى أو أشعر أضم الوسادة إلى صدرى . ودعوت الله من كل قلبى متوسلة إليه أن يعيده إلى بالسلامة . ثم انقلبت على ظهرى وأنا أتمطى يميناً ويساراً . فقمت وفتحت حقيبة يدى وأشعلت سيجارة ثم وقفت قباله الشباك وقد اتـكأت بيدى عليه وتركت هواء الربيع



وانتهى بى المطاف إلى التفكير فى الطبيب وكيف سأقابله غداً

وكان الهواء جميلا حقاً فى ذلك الوقت قبيل الظهيرة . إنه هواء منعش يرطب جسدى ويهدهده ويجدد فيه الرغبات والآمال الجميلة .
وانتهى بى المطاف إلى التفكير فى الطبيب وكيف سأقابله غداً وعاودنى الشعور بالخوف من دخول المستشفى الهادئة ذلك الهدوء الذى يبعث فى النفس الرهبة والرعشة . وذلك الجو نفسه يجبرك على احترام من فيه من ملائكة البشر ذوى القلوب الملأى قلبها بالحنان والعطف على المصابين والمرضى فإن مهنتهم مهنة إنسانية فالطبيب ليس ملك نفسه بل هو ملك للمرضى والمصابين الذين يلتمسون الشفاء والإنقاذ من ويلات الأمراض وآلام الجروح على يديه حتى أن يحيوا حياة طيبة ويستمتعوا بمباهج الحياة . ولذا قالوا:

الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى .

إلا أن هذا لم يمنعنى أن أشعر ببعض الرهبة وبعض الخوف والقلق من الذهاب إلى المستشفى ولكنى عدت وعاتبت نفسى على هذا الشعور القلق وقلت لها أعاتبها :

— ماذا يخيفنى من هذه الدار الرحيمة النقية الطاهرة الصافية .
لا .. لا ينبغى أن لا أخاف منها مطلقاً بل يجب أن أحبها وأقدسها وأحترمها هى ومن فيها : هى وطبيبها وممرضاتها وآلاتها المعدنية الدقيقة الكثيرة اللامعة الواقفة المتراصة فى تحد وثقه مع أحداث القدر الذى لا أمان له ، وأحداث الدنيا وكوارثها

التى تأتى على حين غرة . وكأنها الخائن الذى يقتلك من ظهرك .
وقلت فى شبه تحد :

سأحبها سأحترمها سأحنى رأسى لمن كان لها الفضل فى عودتى إلى الحياة هى ومن فيها ومافيها .

عند هذا الحد جال بخاطرى بالطبع وجه الطبيب وشعرت بشىء من الحسرة وأنا أسمع شيئاً فى أعماقى يحدث نفسى قائلا :

— إنه لا يمكن أن يحبك. إنه يعطف عليك فقط . إنه يشفق عليك . أنت لست أكثر من إحدى مرضاه يرى فيها ثمرة نجاحه . وإذ ذاك أحسست بالسيجارة تكاد تلهب أصابعى فألقيتها بعيداً من الشرفة وارتميت على السرير وأنا أشعر بضيق لا أعرف له سبباً .

ترى لم هذا الضيق ؟ ولم هذا القلق؟ولماذا هذا التردد فى ذهابى إلى المستشفى وإلى الدكتور ؛ لماذا هذه الرهبة وهذه الرجفة التى أشعر بها كلما فكرت أننى سوف أقابل الدكتور ؟ . . نعم إنى أعرف ولكنى ربما لا أريد أن أعترف بأنى أعرف .

الفصل التاسع

قمت مبكرة فى الصباح وجلست فى الشرفة قليلا أرقب شروق الشمس فى يومها الجديد ـ أرقب تلك اللوحة الفنية الخالدة فشعرت بشيء من البرد لأنى مازلت بقميصى الداخلى . وقمت وفتحت دولابى وأخرجت منه شالا خفيفاً من الصوف ووضعته على كتفى وادثرت به تماماً حتى شعرت بشيء من الدفء يسرى فى أوصالى . وهبت نسمات الهواء النقية تداعب خصلات شعرى فى حنان ورقة وكأنها أنفاس عاشق هادئة تداعبه وتهزه بدون قصد . فشعرت بلذه هذا الجو النقى . ولكنى لمحت قرص الشمس الذهبى الخالد يصعد شيئاً فشيئاً وينير الكون وهو مزهو فقلت ما قرب شبه الشمس منى . لقد كانت فى طريقها ثم غابت فى محرابها تتعبد وتتقدم إلى أن شعرت بالراحة بعد أن أسكبت الدمع الكثير . وعادت ثانية وهى رافعة رأسها لتبدأ يوماً جديداً مشرقاً مميزاً طاهراً لايخبو ضوءه فى النهار . وهكذا طلعت الشمس وكأنما خلعت ملابس أمس المظلمة وارتدت بعد طول تجردها ملابس الإشراق النقيــة الطاهرة . ألا يعنى ذلك أن المرء فى حياته كالشمس يستطيع أن يكفر عن خطايا الأمس وأن يولد فى يومه التالى من جديد طاهراً نقياً من الخطايا والذنوب ؟ ثم تنهدت فى ألم وحسرة دفينه عميقة من أحلام يقظتى وقلت :

إن هذا التفكير يريحنى ويهدئنى . ولكن يحيى هل يعرف شيئاً عن ماضى وعن مسلكى فى الحياة ؟ ليته يرانى كما أرى أنا الشمس بالعين التى أراها بها الآن . إن كل ما يقلقنى أنه لا يعرف شيئاً عنى مطلقاً . إنه يتصورنى ملاكا لم أتصل قبله بأحد وأن هذه الأخلاق التى أنا عليها بما فيها من التحلل والحرية التى ليس لها حدود إنما ترجع للبيئـــة التى نشأت فيها . إنه شخص مشغول عاشق لعمله وحياته ورسومه الهندسية الدقيقة . وذلك المستقبل الذى ينتظره . وهذا شىء جميل . ولكنى أخشى بعد الزواج إن عرف شيئاً عن ماضى أن أكون عنده بمثابة بناء بناه ثم انهار لبنة تلو الأخرى حتى تهدم البناء كله . إن هذا الانهيار سيكون فوقى — فوق جسدى الذى لم يعد يحتمل شيئاً ولا حتى لبنة واحدة تسقط عفواً . ولكننى تذكرت فجأة خطابه لى وأنا راقدة فى المستشفى بين الحياة والموت . وأخذت كلمات الخطاب تدق رأسى فى قوة وعنف وتحاول أن تعيد الثقة فى نفسى . وتردد فى إصرار وعناد :

شويكار أنا سعيد فى حطامى . . .

فقلت أرد على نفسى وقد امتلأت بالحب والطمأنينة . يكفينى إنه يحبنى وسوف يتحمل ويغفر أى شىء عن ماضى لو عرفه عن طريق الصدفة . فعن طريق أنا لن يعرف شيئاً .

سأتبع فى ذلك نصائح أمى ونصائح أم وردة . إن كلا منهما تحذرنى أن أحكى أى شىء عن حياتى الماضية ولو كانت بريئة . وما أقل البراءة فى حياتى وإن كانت فى الحقيقة غباء وغروراً ونزوات تافهة وفراغاً لم أعرف كيف أستغله لدرجة أنى توقفت عن الذهاب إلى الجامعة من شدة انشغالى بهذه الأشياء المخزية . وأنا اليوم لا أود أن أذهب إلى الجامعة حتى لا أواجه طالبات العلم الحقيقات هناك . ثم أفقت من التفكير فى مستقبلى حين تذكرت موعد الدكتور اليوم ومع هذا أوشكت دمعتان كبيرتان أن تنزلا على وجنتى الشاحبتين الرطبتين . كنت استشعرت أن حظى عاثر فى هذه الدنيا وأنى مكتوب على جبينى منذ نعومة أظافرى اليأس والحيرة وأنه لا مفر منهما وقلت وأنا رافعة رأسى إلى السماء :

— لماذا يارب هذه الحيرة ؟ لماذا أذقتنى الحب والطمأنينة ورجعت تختار لى الحيرة من جديد والتفكير اللانهائى الذى لا يحتمله رأسى الصغير . وتمنيت وقتها أن أجد أحداً أمامى أشكو له همومى وأحزانى — شخصاً بعيد عنى سواء كان صديقاً أم قريباً . ولكن ليس يحيى أو أبى أو أمى فقد حملتهم من العناء والألم الكثير ما تنوء به نفوسهم النقية الطاهرة . ثم تنبهت من غفوتى على دخول بائع الجرائد يدس الجريدة من عقب الباب فناديت عليه :

— ياعم إبراهيم ياعم إبراهيم .

— أيوه نعم صباح الخير ياست شويكار . . . و

وقبل أن يكمل كلامه سألته أن يلقى بمجلة حواء مع الجريدة وفى سرعة وخفة أخرج المجلة من تلك الكرتونة المملوءة بالجرائد وألقاها فوق الجريدة . فشكرته وهممت أن أنزل لآخذها ولكنه قال :

— ألف مبروك ياست شويكار . أنا مشربتش الشربات بتاع الخطوبة ياست ده أنا بأجيب لكم جرايد طول العمر تنسونى إزاى بس . قالها بلهجة مليئة بالعتاب والتأثر .

فقلت له :

طيب استنى شوية ياعم إبراهيم .

ووضعت الروب على ونزلت مسرعة لآخذ الجرايد . ونفحته بعض النقود بدلا عن الشربات لأنى شعرت بالفعل أننا قد قصرنا فى حقه علينا . إنه بائع الجرائد الذى يحضرها لوالدى منذ ثلاثين عاماً . وبعدها شعرت أنى راضية بعض الشىء عن نفسى . فقال ضاحكا :

— ده برده ما يمنعش أنى لازم أشرب الشربات ياست شويكار ؟

— إن شاء الله ياعم إبراهيم . ثم أكمل حديثه قائلا :

— أصل أنا مازعلش من قريب. أنا زعلت لما لقيت صورة حضرتك فى الجرنال . لا لأ ياربى آه فى مجلة الجيل ومكتوب تحتها إسمك وخبر الخطوبة . فقلت فى نفسى . بق ياولد متعرفش الخبر من حد فى البيت كأنى رجل غريب من بره . ثم أضاف قائلا :

— ديه عشرة العمر ياست [illegible] . وانت أنا مربيكى على إديا سبعة وعشرون سنة . أنا فاكر من يوم ما كنت بأجيبلك مجلة الكتكوت لغاية ما جبت لك مجلة حواء . ثم أضاف وهو يمط شفتيه :

— ياسلام على الزمن . ده العمر بيعدى بسرعة

ثم استأذن قائلا .

— السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . ونزل مسرعاً على السلالم إلى الشارع أو إلى طريق رزقه .

وطلعت أنا إلى حجرة نومى . واستلقيت على السرير . ثم تصفحت الجرنال مسرعة . وأخيراً بدأت أفتح ورق المجلة وأتصفحها جيداً أبحث عن موديل لفستانى الجديد أستقبل به يحيى . لا لا بل أبحث عن موديلات لفساتينى التى سأشتريها بعد الزفاف . وابتسمت راضية وكانت الساعة قد قربت من السابعة صباحاً . وطفقت أتثاءب وأتثاءب . فقمت مسرعة إلى الحمام . وهناك كان للماء البارد على وجهى أثر كبير فى عودة النشاط إلى . ثم رجعت

إلى الحجرة . وارتديت فستاناً أبيض من التيل مفتوحاً من الأمام وتحليه أزرار كبيرة . وعقصت شعرى إلى الخلف . ونثرت على وجهى قليلا من البودرة . وفى ذلك الوقت كان كل من فى البيت قد ابتدأ فى الاستيقاظ . وقلت ستكون مفاجئة على أم وردة أن أستيقظ أنا قبلها . فأنا كل يوم أتأخر فى النوم ولا أصحو إلا إذا دلكت لى ظهرى وسيقانى . حتى أصبحت هذه عادتها بدون أن تسألنى . ثم نزلت إلى حديقتنا المزدهرة . ولم أشعر إلا ويداى تقطفان الأزهار لتكونا منها صحبة جميلة تبهر الناظر إليها . ودخلت مسرعة لأضعها على مكتب والدى فى إحدى الأوانى الموضوعة عليه.

ثم أخذت آنيتين أخرتين ونزلت مرة أخرى إلى الحديقة وأنا أشعر بفرحة لا تقدر . وبدأت فى تنسيق الزهور تنسيقاً مرتباً جميلا وحليتها بفروع الترحنة الخضراء الجميلة . ووضعت الآنية الأخرى فى حجرة التليفون . وهناك أدرت القرص لأطلب نمرة أحفظها عن ظهر قلب . إنها نمرة حلاقى وكانت الساعة قد قاربت التاسعة والنصف . فأخذت منه موعداً للساعة الثانية عشرة تماماً . وأغلقت السماعة ودخلت إلى حجرة المائدة . حيث وجدت زوجة أبى تأمر الخدم بتجهيز الإفطار فقلت لها :

— صباح الخير ياماما .

— صباح النور إنت تتحسدى النهاردة . إزاى صحيتى من النوم بدرى كده ؟

— متحسدنيش لحسن ما أقومش بكره وأرجع زى ما كنت.

— على العموم خلاص البيت اتعود على تأخيرك .

وضحكنا سوياً ثم سألتنى :

— ياترى لقيتى موديل لفستانك الجديد ؟

— أيوه فى مجلة حواء شفت موديل جنان . واحد علشانى وواحد يليق أوى لك « ديسنت » خالص ياماى .

— عال عال أول ما نفضى شوية نروح للخياطة على طول .

ثم أضافت بحنان :

ربنا يهنيكى يابنتى ويسعدك ويكتب لك طول العمر .

فسررت كثيراً . ولكنها نادت على أحد الخدم وقد احتقن وجهها قائلة :

— الساعة عشرة ولسه الفطار مجهزش . هو يعنى لازم أنزل بنفسى . هو انتم نسيتم إن رمضان خلص ولا إيه .

ثم جلسنا أنا وهى نتناول إفطارنا . وكنت آكل قطعة من البسكوت بلذة وأتأملها أمامى . كان جسمها ممتلئاً لكنه متناسق وكانت عيناها توحيان بالرضى والراحة لا تتغيران مهما تغيرت أحداث الدنيا وشعرها الخفيف القصير الكستنائى ويداها المكتنزتان البضتان اللتان تعنى بهما كثيراً لأن عنوان المرأة فى يدها على حد قولها . كانت كل هذه الأشياء فى جملتها تمثل المرأة الطيبة القانعة

بحياتها . والقناعة أجمل وأحلى ما فى الدنيا بأسرها . إن معناها الاطمئنان والراحة والرضا وعدم القلق الذى أعانى منه منذ معرفتى بيحيى . وبعد أن انتهيت من تناول إفطارى قمت أدخن سيجارة فى حجرة المكتب أنا وزوجة أبى وأخذنا نتحدث قليلا فسألتنى قائلة :

— وحشك يحيى ولا لأ . إطلعى من دول داه أنا عرفاك ؟

ولم أستطع أن أجيبها فقد تعودت منذ طفولتى أن أحتفظ بأسرارى لنفسى وأتصرف بمنتهى الحرية وفق رغباتى . ولو أنى فى حاجة إذ ذاك لأن أبوح بكل شىء . غير أن عادتى تغلبت على رغبتى فى الإفضاء إليها ورددت عليها قائلة :

— أبداً ياماما موحشنيش قوى . يعنى نص نص . موش كده ولا انت شايفه حاجة غير كده ؟

فقالت وفى عينيها نظرة فاحصة .

— أنا شايفه إن عقلك معاه وروحك موش هنا إنت هناك فى سويسرا. عقبال ما تتجوزوا وتقضوا شهر العسل هناك علشان تتمتعى بدنياك . فشكرتها باسمة أعجب كيف أنها تقرأ ما فى عقلى . وكانت الساعة قدقاربت على الثانية عشرة . وكنت قد شربت سيجارة تلو سيجارة وأنا أسأل نفسى لماذا أنا ذاهبة إلى الحلاق فى هذا اليوم ؟ ثم أقول أنا ذاهبة لأنى أريدأن أهذب شعرى.لالا. ليس

هذا من أجل الدكتور إنى مخطوبة وأحب يحي . أما الدكتور فإنه مجرد صديق أعزه وأقدره لأن له الفضل على مهما يكن ، ثم عدت أقول لنفسى أن يحي يحبنى ثم إذا عرف شيئاً عن ماضى كرهنى وحالت كرامته دون الزواج . على أنه إن تزوجنى فإنى سأكون مهددة .

ثم شعرت بضيق فى صدرى ووددت لو أبكى . وأصرخ مستغيثة بالله من القدر — من الزمن من الأيام من الحب ذاته وهو ألذ ما فى الوجود . لقد أصبحت فى حالة كئيبة من القلق والحيرة ولم أخرج من وجومى إلا حين تذكرت موعد الحلاق . فخرجت أجرى وكأنى أهرب من التفكير وأتحرر من الضيق أو من ذلك الشىء المتأرجح فى صدرى . وأخذت العربة وأدرت عجلة القيادة فى سرعة لم أسره بها عقب وقوع الحادث ووضعت إصبعى على كلاكسى العربة بحركة عصبية وكأنى أنذر المارة وأعلمهم أنى فى ضيق إنى لا أرى أمامى غير طريق مفروش بالأشواك والصعوبات . إن نفسى مشتتة مبعثرة ، وعقلى قد أضناه التفكير والشد والجذب : وأعصابى قد أصبحت مرهقة مرهقة . ووجدانى كله عذاب وقلق وحيرة . إن عقلى وعواطفى ونفسى تعيش فى دوامة أو طاحونة تدور وتدور ...

ترى ماذا سيكون موقف يحي لو عرف ماضى الملوث فى الوحل إلى هذا الحد ؟

نعم — كنت أقود العربة وأنا أكاد لا أرى الشوارع والطرق ولا أحس بأى آدمى أمامى فى هذه الطرق . كنت أرى الشوارع طويلة طويلة ليس لها نهاية . كنت أتصور إنها تتجمع وتؤلف حاجزاً يمنعنى من الاستمرار فى السير . حتى وصلت إلى الحلاق ووضعت رجلى على الفرامل فوقفت العربة وقد أحدثت صوتاً كأنه زئير أسد وهو يصرخ من ألم الجوع والعطش. تسمر المارة فى أماكنهم وخرج الحلاق من محله ونظر الجميع إلى فاتحين أفواههم .

فشعرت بما ارتكبته من خطأ ونظرت إلى الأرض وهممت أن أدخل على الحلاق . ولكنى سمعت ما قد سمر قدمى عن السير حين قال أحد المارة :

— ماهمه أولاد الذوات كده ياعم . موش ركبالى عربيه حمره. ولازم تعمل مناظر وحركات شغل السينما الأمريكانى . وراح يهمها إيه لو موتت لها واحد من الشعب الغلبان أو أكتر ؟

ويرد آخر فى لهجة التقريع أيضاً :

— تلقاها تقرب للبنت بتاعت ديك النهار اللى دخلت فى أجزخانة وموتت لها إتنين تلاته ودفعت التعويض وخلاص

ويقول ثالث فى لهجة التحدى :

— يكفينا شر المال إذا كثر :

ولم تطق أذناى أكثر من هذا الكلام وأنا متكئة على العربة

يكاد يغشى على لفرط خجلى من تصرفى وتمنيت لو أن صوتاً خرج من حلقى ليعتذر لذلك الجمهور . ولكنى أخفقت وتحاملت على نفسى ودخلت إلى الحلاق وارتميت على المقعد وسلمت له رأسى الموجع المرهق يفعـــل به ما يشاء . وأشعلت سيجارة وطلبت فنجاناً من القهوة حتى أستعيد أعصابى . وكيانى . وابتدأ الحلاق يصفف لى شعرى وابتدأت أنا أحمد الله أنى لم أرتكب حادثة اليوم . التى لو تمت لأطاحت بالبقيه الباقية من حياتى المعنوية . ولكنى فكرت فيما ذكره أحد المارة من شر المال إذ كثر وقلت فى تعجب :

— لا أحد يعلم بما فى القلوب من أسرار كامنة. إنه أحد الآدميين الذى يحسدوننى على ركوب عربة جميلة حمراء رائعة . ويعتقدون أن حياتى كجمال العربة وروعتها وشكلها البديع . ويعتقدون مرة أخرى أن حياتى هادئة ولا يعرفون إنى أتمنى أن أسير مثله على قدمى وقلبى مستريح وروحى مستكينة مطمئنة . ثم قلت معاتبة الزمن والقدر :

لماذا يا زمن قربتنى من الراحه والحب والحنان . ولما ابتدأت أهنأ بهذه الراحة تركتنى وتخليت عنى وانقلبت أفراحى إلى أحزان وقلق ويأس مرير ؟ . ووجدت نفسى وحيدة غريبة فى هذا العالم الواسع الكبير . عند هذا الحد كان قد انتهى

الحلاق من تصفيف شعرى وتجميله . فخرجت مسرعة وكانت الساعة قد قاربت الثانية والنصف . لأنى مطمئنة أن والدى لا يتناولان غذاءهما قبل هذا الموعد. وخرجت وحاولت جاهدة أن أرسم على وجهى إبتسامه أشكر بها الحلاق . أفلحت بعض الشىء . ثم عدت إلى بيتى ولم أنس أن أطلب من السائق أن ينظف العربة تماماً . ودخلت أجرى إلى حجرة الطعام فوجدت أبى وأمى فى بدايته . وحين دخلت انحنيت على أبى أقبـــله وأمى هى الأخرى ثم قال أبى :

ــ كنت فين يا شويكار أنا كنت راح أزعل . . .

ــ ما هى ماما عارفة أنا كنت عند الكوافير .

هتعملى شعرك ليه النهاردة ؟

ــ أيوه يا بابى لك حق ؟ لكن أصل بكره زحمه عنده أوى . قلت هذه العبارة وقد تدافع الدم إلى وجهى ولم أقو على النظر إلى أبى ولم أستطع أن أصارحه بأنى ذاهبة إلى طبيبى . لأنى كنت خجله من أن أقول له إنى ذاهبة إليه . ولأجل هذا ذهبت إلى الحلاق . وكان لابد أن أصارحهما فخطرت على بالى فكرة . فتظاهرت أنى تذكرت الموعد فجأة وقلت وقد تركت الملعقة تقع من يدى عمداً .

ــ آه يا بابى أنا مقلتلكش إنى رايحه للدكتور . شوف إزاى

يا بابى أنا افتكرت دلوقت بس وحضرتك بتسألنى ...

فنظر إلى من تحت نظارته . ونظرت إلى أمى هى الأخرى . ودقات قلبى تعلو . فإنى لم أطمئن بعد على نجاح هذه الكذبة البيضاء . ولكن تنفست الصعداء حين قال :

— طب الحمد لله إنى فكرتك . بس إوعى تنسى تانى ؟

فابتلعت ريقى وابتسمت بارتياح . وقال هو مرة أخرى :

— هو الميعاد الساعة كام ؟

— الساعة خمسة يا بابى . ليه فى حاجة ؟ ؟

— أبداً بس أصل يعنى يمكن تكون عمتك تيجى دلوقت وأولادها وانت لازم تكونى موجودة لأنك عرفاها بتزعل .

نخفق قلبى بل كاد ينخلع من صدرى وانتابنى اضطراب عجيب من أن أقابلها . وتصورت كلماتها القارصة اللاذعة وتحذيراتها الشديدة . وشعرت بغيظ وتوقفت عن الأكل فسألنى أبى :

— مالك ما تكملى أكلك فيه حاجة ؟

— أبداً بس بافكر ألغى الميعاد بتاع الدكتور . ولو أن من اللازم إنى أروح له علشان راح يكتبلى على كريمات وأنواع زيوت علشان بشرتى تتحسن . فقال باهتمام بالغ :

— أبداً إزاى تلغى الميعاد . ميصحش أبداً بعدين يزعل . ثم أضاف فى شىء من التفكير :

على كل حال إنت هتفضلى معها شوية صغيرين وأنا أستأذنلك منها علشان الميعاد .

عند هذا الحل هدأ روعى وجمعت قواى بعد جهد طويل وشكرته فرحة راضية لما أعده لى. ومر بعض الوقت وأنا جالسة معهم فى حجرة المكتب على أحر من الجمر أنتظر عمتى . وكنت أريد أن أنهى مقابلتى معها . فقد هيأت نفسى على تقبل ملاحظاتها اللاذعة وأغلقت أذنى واحـــدة بالطين والأخرى بالعجين . عن سماع كلامها .

ولكنها لم تحضر . فاستأذنت من والدى وطلعت إلى حجرة نومى وفتحت دولاب ملابسى . ووقفت أمامه أتأمل العدد الكبير من الفساتين الجميلة . إنى أعرف أن كل قطعة فيه تحفة مستقلة . ولكنى مع هذا ترددت كثيراً فى أى الفساتين أرتدى .

كنت آخذ الفستان لأضعه على وانظر فى المرآة ثم اتركه على السرير . الفستان الأخضر ثم الأصفر ثم . . ثم . . . حتى جئت على فساتينى كلها فى دقائق . ولم أختر واحداً منها . ثم فتحت دولاب الأحذية أنتقى منها واحداً . ولبست واحدة تلو الأخرى وكأنى أضع قدمى فيها لأول مرة . ثم تركت كل هذه الأكوام من الملابس والأحذية . وجريت حافية القدمين لا أرتدى سوى بعض الملابس الداخلية . ودخلت الحمام . وأنا أؤكد لنفسى أنى بعد تناولى

« دش بارد » ستهدأ نفسى وأعود إلى حجرتى ليقع اختيارى على شيء . وبينما أتناول حمامى إذ شعرت أن نفسى تهدأ وأعصابى المرهقة تستريح وتعود حالتى إلى طبيعتها . وبعد أن انتهيت من كل ذلك وشعرت أننى عدت إلى حالتى الطبيعية . ثم انتزعت من رأسى المنديل الذى وضعته حتى يحمى تسريحة شعرى من البلل . ودخلت حجرتى مسرعة . ولكنى فوجئت بما جعلنى أتسمر فى مكانى . لقد كانت حجرتى مقلوبة رأساً على عقب وكأنها فى عراك مع ملابسى الملقاة كومة على السرير وكومة على الأرض . وأحذيتى مبعثرة فى شكل فاضح . فشعرت بدوار من هذا المنظر ولم أصدق أننى أنا التى فعلت هذه الحماقة الشنعاء . وجلست على كرسى التواليت أسأل نفسى لماذا كل هذا . وأجبت على نفسى قائلة :

— إنك خلقت هكذا . إن ذلك الدم الذى يجرى فى عروقك يدفعك دفعاً إلى ارتكاب هذه الحماقات وتلك الأخطاء . وما أكثر أخطاءك يا شويكار .

ثم يصرخ عقلى . لا لا تعيبى فى دمى أيتها النفس أنى المحاسبة أفعل هذا لأنى فرحة بعودتى إلى الحياة وليس من أجل . . .

ولم أستطيع أن أكمل اسمه خجلا من نفسى . ولكنها الملعونة

استمرت فى تأنيبى وتنبيهى ساخرة سخرية لم أعهدها فيها من قبل .

قالت لى . . إنك تضعفين . . إنك تستسلمين . لا لن تقوى على مقاومة ذلك الداء الخبيث الذى خلقت به إنك هكذا وستظلين هكذا ما عشت .

عندهذا الحد لم أتمالك نفسى من بكاء كأنه عويل طويل حزين .

وأنا أردد قولى : إذن أنا أضعف وأضعف . وإلا لماذا أفعل كل هذا لأنى ذاهبة إليه ؟ وكنت صريحة مع نفسى أكثر من ذلك فقلت لها :

— لماذا أنت دفعتينى إلى الذهاب إلى الحلاق؟ لماذا طاوعتينى وأنا أنتقى ملابسى ؟ لماذا لم تكتف بأى واحد منها ؟ لماذا أنت ضعيفة إلى هذا الحد ؟ ووجدت نفسى أنهار وكرامتى تتفتت إلى ذرات صغيرة تضحك منها ملابسى الملقاة وتسخر منها سخرية مريرة!

وتركت لنفسى العنان فى البكاء . . حتى هدأت فرفعت وجهى من بين راحة يدى . ولمحت عيناى المنبه الموضوع فوق الشفنيرة. فانزعجت . لقد كانت الساعة الخامسة تماماً . فدق قلبى وانتبه عقلى وانتفضت من مقعدى وقمت ثم انتقيت من بين ملابسى أحداً منها وكان ثوباً أصفر اللون عارى الظهر تحليه وردة عند نهاية الفتحه . وانتقيت حذاء شفافاً أبيض وحقيبة كبيرة أنيقة صفراء . وبدأت أعمل مكياج وجهى إلى أن انتهيت . ولم أنس أن أضع بعض قطرات من عطرى المفضل . وأنا أردد قولى :

إن نفسى ضعيفة وهكذا خلقت !!

وفتحت الباب وانطلقت مسرعة بعربتى إلى طريق المستشفى . وأدرت عجلة القيادة . وأنا أشعر بلذة لا توصف . إنها لذة اللقاء .

حتى وصلت إلى هناك — إلى الباب الحديدى الكبير الذى يقف عليه نوبى أسود أدخلنى وهو باسم راض فخور بعمل طبيبه وكأنه هو الذى عالجنى من قبل. ودخلت . وشعرت برهبة ورعشة طفيفة. وعاودتنى بعض الذكريات. وتذكرت يحيى حبيبى الغائب. وركزت التفكير فيه عليه وسمعت صوتاً خلفى وأنا واقفة فى بهو المستشفى يقول لى :

— أنا سعيد فى حطامى أيتها الصغيرة الجميلة !!

فأردت أن ألتفت حتى أرى مصدر الصوت ولكنى سمعت :

— إنى سعيد فى حطامى أيتها اللعوب !!

تسمرت قدماى واهتز كيانى كله لهذه الكلمة . لا بل لهذا السهم المصوب إلى كرامتى. وتحاملت على نفسى واستدرت مسرعة. فلم أجد أحداً . لم أجد حتى نفسى . وحاولت عبثاً أن أجدها فلم أعثر عليها . كنت كالغريق الذى يحتمى بغير شىء ويمسك بكلتا يديه ذرات الماء . وأشرفت نفسى أن تغوص فى قاع لا نهاية له ودارت الأرض فى سرعة وخيل إلى أن السقف هبط على بدون رحمة .

حتى أصبح البهو أمامى وكأنه أنقاض اليأس والخزى والعار . وفجأه وجدت ما يخرجنى من هذا التفكير الذى أنا فيه . وجدت أمامى إحدى الممرضات . تتأملنى فى دهشه وأنا لا أقوى على التفوه ببنت شفة . فأمسكت يدى قائلة :

— مالك يا هانم حاسه بحاجة ؟ فيه أى وجع فى جنبك اليمين شاغره بأى شىء ؟

كانت المسكينة لا تعرف ما بنفسى التعسة الملعونة . فاعتقدت أنى فى حالة دوار أو أنى فوجئت بمرض من الأمراض بدون إنذار فلم أقو على الكلام :

— الدكتور فين ؟

فسحبتنى من ذراعى وفتحت باب مكتبه وأدخلتنى وأغلقت الباب . ووقع بصرى عليه فحاولت أن أجمع قواى المشتته وأقف على قدمى أمامه . وحين وقع بصره على قال بصوت كله حنان .

— أهلا يا مدموازيل شويكار أهلا أنا بافتكرك موش راح تيجى. وكنت فى صراع مع نفسى وبدون أن أدرى تركت له يدى وأغمضت عينى وأنا ما زلت فى مكانى مرتكنة بظهرى على الباب . وقال فجأة .

— مالك يا شويكار إنت هتخلينى أقول إنك أول ماجيتى المستشفى تعبتى ولا إيه ؟

فابتلعت دموع قلبي وأنفاسى الحائرة وقلت له وأنا أحاول الابتسام :

— إزاى وهو ده معقول ؟ بالعكس أنا سعيدة جداً إنى جيت هنا .

— موش معقول ما بينشى عليكى أبداً .

— أصل حسيت بشوية صداع وأنا جاية . فيظهر إنى لازم آخد أسبرو وفنجان شاى . وأضفت بشىء من البساطة :

— موش كده ولا أيه يا دكتور الطب بقول كده ؟

فضحكنا سوياً . وقد هدأت نفسى بعض الشىء . وجلست على أحد الكراسى قبالة مكتبه. وجلس هو فى مكانه وكان يرتدى بنطلوناً أبيض وقميصاً شفافاً يكشف عن منكبيه العريضين. وكنت مشغوله فى التنقل بعينى من قطعة إلى قطعة فى سرعة . ولكنه فاجأنى بأن ضرب على المكتب بيده وقال بصيغه حازمة :

— يا أفندم أنا جايبك هنا موش لعب وهزار . علشان أعالجك إنت فاهمه ولا لأ ؟ ثم قال . إسمعى كلام الدكتور .

فنظرت إليه بدهشة تنم عن جهلى بمغزى هذه الكلمات . ولكنه قطع حبل تفكيرى قائلا :

— أنا الدكتور وعاوز أعالج بشرتك لأنها محتاجة فعلا لعناية

— أيوه يادكتور . وحضرتك تشوف إيه ؟

أنا بعد تفكير طويل لقيت إنك عاوزه صنف يخفف من حلوتك ديه شوية لأنها بالفعل زادت عن حدها .

فضحكت ولكنه أسكتني وقال :

— أنا مأحبش أكون سبب فى أنك تضعفى المجتمع حولك . إنت خطيرة جداً !!

فضحكت مقهقهة منه ثم ضحكنا سوياً . ولكنه بادرنى بالسؤال

— هو يجي بك إن شاء الله جاى إمتى ؟

— معرفش يا دكتور لكن أنا منتظره شوية أيام وبعدها على طول بيجى .

— ربنا يجيبه بالسلامة .

ثم ضغط على الجرس بقوة يطلب لى فنجان شاى وأسبرو ولكنه كمن تذكر شيئاً وقال :

— يعنى إحنا منشوفكيش أبداً . طبعاً يا ستى مين أدك . أنا عارف أيام الخطوبة دية أحلى أيام العمر .

— لأ والله إزاى ؟ بس كنت مشغولة شوية . وكان ما كنتش هنا كنت مسافره فى العزبة .

— آه والله وأنا محتاج إنى أسافر أهدى من أعصابى شوية فى حتة زى كده لأنى تعبان .

— ليه يا دكتور تعبان من إيه ، من العمل لازم طبعاً .

— لأ من حاجة تانيه .

ــ زى إيه يعنى كده ؟

فنظر إلى طويلا وهو ينفث دخان سيجارته التى تكاد لا تنتهى.

ــ أحياناً يا شويكار الواحد يبقى عاوز يهدىء أعصابه من شىء كويس حلو خالص .

ــ والحلو خالص إزاى يهرب منه ؟

ــ زى ما يكون أدامك على السفرة طبق جـلاسى لذيذ مرطب . بس مرشوش عليه شوية دبابيس صغيرين .

ــ ياه للدرجة ديه يا دكتور ؟

ــ أيوه وأكتر . يمكن حتى الدبابيس الواحد يقدر يشيلها وياكل الجلاس ومعلش حيكون ساح . لكن يرجع يحطه فى التلاجة مرة ثانية .

ــ إنت زعلتنى قوى يا دكتور . لازم عندك مشكلة جامدة خالص ؟

ــ تقدرى تسميها أكتر من مشكلة .

ــ أمال إيه ؟

ــ ده القدر . . القدر أقوى منى ومنك ومن أى شىء آخر فى الكون .

فتألمت له بكل قلبى من ظروفه . وارتسمت أمارات الحزن على وجهى . وسبحت فى خيالاتى. ولكنه أيقظنى منها قائلا:

ــ أنا مأحبش أزعلك. ديه آلامى لازم أحتفظ بها لنفسى .

— أبداً يا دكتور أنا أكون سعيدة لو أشركتنى فيها .

كنت أكلمه وأنا أشعر أنى فى نشوة وسعادة لم أشعر بها منذ زمن . وإنه لشعور لذيذ أن يستكين أمامى رجل ويقص على آلامه وأحلامه . فكنت أجلس قبالته مزهوة وكأنى إحدى ملكات العصور القديمة . وبينما أنا هكذا إذ دخلت الممرضةوبيدها الشاى والأسبرو فقلت لنفسى . إنه لا لزوم له . إن رأسى شفيت ونفسى هدأت بل رطبت ترطيباً لذيذاً مريحاً ؛ كذلك الترطيب الذى كنت أشعر به تجاه أى شاب . ولكنى شربت الشاى كله وبلعت الأسبرو .

وبينما أنا راجعة من عنده وأنا أقود سيارتى فى طريقى إلى المنزل وأنا سعيدة راضية كنت أسير بعربتى فى تؤدة واتزان وكأنى لا أريد أن ينتهى الطريق . فحدثت نفسى قائلة :

— يا ترى هل يحبنى الدكتور . أم أنا مجرد مريضة كانت عنده . أم أن هذه مجاملة منه لى . أم أنه كأغلب الأطباء وبقية الناس يحاول أن يجرب طريقة العلاج النفسى ورفع المعنوية المحطمة بطريق غير مباشر حتى يتم علاجه ؟

عند هذا تبطأت العربة رويداً رويداً وأوشكت أن تقف عن السير فى طريقها كعقلى تماماً فى ذلك الوقت . ولكنى وجدت نفسى أبتسم . وأعيد تحريك عربتى فى سرعة وخفة

وأنا فى هذه المرة أسخــــر من نفسى . ومن أفكارها السخيفة وأقول لها :

— يا لك من نفس حمقاء كيف لا يحبنى ؟ ألم يقل بصوت ملؤه الحنان وبنبرات يشع منها الحب الدفين :

أنت أصبحت خطرة على المجتمع . لابد لك من أى شىء يقلل من جمالك . فاستراحت نفسى لذلك وابتسمت ابتسامة عريضة ؟ ووصلت إلى المنزل الكبير . ودخلت وكانت الساعة الثامنة تماماً وكان والدى كعادته فى مكتبه يقرأ ويطلع . فدخلت عليه فرحة :

— بنسوار بابى .

— الله إنت جيتى ؟ بنسوار يابنتى .

— أيوه جيت دلوقت .

— موش الحمد لله بشرتك كويسة ؟

وكان هذا هو السؤال الذى أنتظره فقلت على الفور .

— أيوه كويسة الحمد لله لكن يظهر يا بابا إنى لازم أروح كمان مرتين أو تلاته على الأقل علشان حضرتك عارف إنه لازم كده لأن الدكتور بيعتبرها فترة نقاهة ولابد أنه يلاحظ ويراقب فيها تغيرات بشرة وجهى شيئاً فشيئاً .

فصدقنى والدى قائلا :

— بالظبط يا بنتى . أنا عايزك تعملى كل ما فى وسعك علشان

ترجع الحالة طبيعية . وده طبعاً يتطلب تنفيذ أوامر الدكتور فضحكت قائلة :

— طبعاً طبعاً يا بابى إنت عارف بنتك خلاص حتسمع كلام الأكبر منها من هنا ورايح !!

واستأذنت وجريت أعدو كالطفلة إلى حجرتى . وأغلقت على الباب حتى أخلو إلى نفسى !!

ولكنى ما أن أرميت جسدى المتعب على السرير . وقدخلعت عنه الفستان وتركت لشعرى العنان حتى سمعت فجأة رنين التليفون فى أزيز متواصل . ورفعت السماعة بيد مرتعشه قلقة قائلة ياترى من المتحدث فى هذه الساعة ؟ لا بد أنها إحدى صديقاتى . ولكن لم يطل انتظارى حتى سمعت صوته من جديد . إنه صوت الطبيب . فكتمت شهقة فى صدرى من شدة سرورى وتظاهرت بعدم معرفته قائلة :

— ألو مين يا أفندم مين حضرتك ؟

فسكت قليلا وأنا أسمع أنفاسه ودقات قلبه معاً قد اختلطا وامتزجا . وأخرجا نغماً حلواً جميلا حين قال :

— خمنى كده يا شويكار هانم يمكن تعرفى ؟

— والله موش عارفه بالضبط .

— خلاص غلب غلابك . موش راح تعرفينى . ؟



.. ألو .. مين يا أفندم .. مين حضرتك ؟

— أبداً والله يا أفندم أنا لسه ماتشرفتش بمعرفة حضرتك ؟

— طيب أنا يا ستى الدكتور . ثم أضاف فى شىء من اليأس العظيم :

— أنا خايف تكونى نسيتينى .

فشهقت مرة ثانية شاعرة بالفرح وأجبت .

— أهلا أهلا يا دكتور أنا آسفة خالص . أصل الواحد والله عقله مشغول شوية اعذرنى .

— طبعاً أناعازرك ومقدر موقفك .طبعاً إنك مشغولةعلشان غياب يحيى . بكره يرجعلك بالسلامة .

— مرسيه أوى يا دكتور .

ثم ما لبث أن بادرنى بالقول وقد تعجبت من شدة جرأته .

— يا ريت يا شويكار كل الستات مخلصين زيك . أنا بأحسد يحيى عليكى .

— مرسيه أوى على المجاملة ديه يا دكتور .

— أبداً أنا موش باجاملك ولا حاجة . أنا باقول الواقع أى رجل ميتمناش أكتر من كده .

— والله إنت بتكسفنى بالكلام . داه بس من ذوقك .

— إذا كنت إنت تعتبر يه مجاملة . ديه حاجة ثانية . لكن أنا شخصياً بأقول الحقيقة .

— طيب أنا خلاص هأعتبر ديه الحقيقة . ثم بادرنى بالسؤال .

— لكن قوليلي إنت مسألتنيش أنا بأتكلم ليه فى الساعة ديه ؟

— على العموم إحنا لسة بدرى .

— بأه أنا كل يوم موش بأنام قبل الساعة اتناشر .

— ليه لازم بتروحى عند أصحابك ؟

— أيوه شوية بنسهر سوه فى بيت أى حد فينا : يوم هنا ويوم هنـــاك . ولو إنى من ساعة ما جيت من العزبة ما زرتش حد أبداً .

— لك حق — الواحد لازم ميضيعش دقيقة واحدة من عمره إلا وهو يحاول أنه ينبسط فيها بقدر الإمكان .

— عال يا دكتور عال إنت أصبحت من أنصار المبدأ بتاع الشله بتاعتنا ؟

— ليه لأ . وهو معقول إن واحد راح يشوف أمامه الجمال وما يمتعش نفسه بيه . حتى ولو بالاندماج فيه ؟

ثم تنهد بعمق كالرجل الذى فقد فلذه كبده وأصبح زاهداً وحيداً وقال :

— يا ريت كل إللى تشوفه العين تقدر تتمتع به النفس .

فقلت ضاحكة فى صراحة :

— وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا .

— ياه إنت يظهر بتحبى الشعر أوى . إنت طول عمرك مؤثرة خالص فى كلامك .

— إن جيت للحقيقة أنا مبأحبش الشعر نفسه . لكن حبيته علشان أم كلثوم بتغنيه .

ثم قلت معاتبة له :

— لكن قولى يا دكتور إحنا موش قلنا راح نبطل نظرة التشاؤم دية ؟

— أبداً لا تشاؤم ولا حاجة .

— أمال أيه ؟

— مجرد خواطر بتمر فى نفسى وأنا مأحبش أخبى حاجه أبداً .

— الصراحة أحسن حاجة فى الدنيا يا ريت الواحد يلاقى الشخص إللى ممكن يحكى له كل شىء فى صراحة . دية حاجة بتريح خالص .

— يعنى خلاص اتفقنا نحكى لبعض كل شىء فى صراحه تامة؟

— أيوه يا دكتور إنت بتستدرجنى فى الكلام . إنت تنفع سياسى كبير!!

— مرسيه أوى يا شويكار . دلوقت لازم أقول لك بنسوار؟

— لسه بدرى .. خليك على راحتك يا دكتور .

— إذا كان على راحتى يبقى لازم أكلك ليل نهار . لكن معلش . بس ما تنسيش تعملى تدليك فى وجهك زى ما قلتلك مدة عشر دقائق قبل ما تنامى .

— مرسيه أوى على الاهتمام داه كله .

— العفو يا مدموزيل . بنسوار .

— بنسوار يا دكتور .

ولكنه لم يغلق السماعة وعدت وسمعت أنفاسه مع دقات قلبه قد إختلطا وامتزجا وخرجا فى كلمة بنسوار مرة أخرى لعلها ـ فيما أتصور ـ تساعده على أن يرفع السماعة من على أذنه ويضعها وبذلك يسكت الصوت الوحيد الذى يحبه بل ويعتبره الغذاء الروحى له .

ثم نمت وأطفأت الأباجورة الحمراء الموضوعة بجانبى على الكوميدينو ورحت فى سبات عميق مريح .

واستيقظت فى الصباح مبكرة جداً . على صوت الكلب ينبش بأظافره على باب حجرتى بقوة وعنف . فقمت مسرعة وفتحت له الباب . وحاولت إسكاته حتى أواصل نومى . ولكن بعد فوات الأوان . فمحاولتى معه زادت عن عينى النوم بسهولة . فرضخت له وأدخلته وذهبت أنا إلى الحمام أغسل وجهى وحين رجعت وجدته فوق الأريكة ناظراً إلى وأنا أفهم كل نظراته . لقد كنت أشعر أنه يشاركنى آلامى أيام المستشفى ويحس بكل خلجات نفسى أكثر من غيره من الآدميين المنافقين . فربت على ظهره بحنان وأنا أعتب على نفسى بصوت يسمعه قائلة :

— معلش يا بوبى متزعلش منى . أنا بقالى كام يوم مشفتكش

ولا أكلتك ولا خرجت معاك . زى بعضه أصلى كنت مشغولة أوى أوى يا بوبى فنسيتك .

ففتح فمه وأخرج لسانه وقد اهتزت رأسه وكأنه يفهم ويقبل اعتذارى له . فقلت له وقد جلست بجانبه .

ــ آه أنا عرفت إنت زعلان عايز تفكرنى بالوعد إللى قلت لك عليه . أنا لما أقوم من المستشفى راح نخرج سوا ونعلب ونجرى فى الشوارع والنادى فرحانين علشان أنا خفيت .

فقام وانتفض كعادته فى وسط الحجرة حين سمع أحداً على وشك الاقتراب من باب غرفتى . وجرى إليه . وما هى إلا ثوان حتى فتح الباب ودخلت أمى فى أوج زينتها وقد ارتدت فستاناً بلون السماء وحذاء أبيض . وكان شعرها مصففاً بطريقة أضفت عليها جمالا هادئاً . وخيل إلى وقتها أن عمرها قد نقص عشر سنوات لهذه الأناقة . وبعد أن دخلت وقفت وظهرها إلى الباب فتعجبت أن أجدها فى أوج أبهتها مبكرة هكذا . فقد تعودت أن تستيقظ حقاً مبكرة ولكنها تبقى بالروب إلى قرب الظهيرة وتبدأ تلبس . وهنا قفز إلى ذهنى سريعاً الجواب الذى أخرجنى من حيرتى. إنه عيد زواجها. فبادرتنى بالقول باسمة فى حنان ورضاء .

ــ النهاردة عيد زواجنا .

— أيوه يا مامى كل سنة وانت طيبة و بابى كمان وكل إللى فى البيت طيبين وإقتربت منها أقبلها . وحين طبعت على خدها قبلة . اشتممت رائحة (البرفان) الجميلة . إنه صنف جذاب لم تستعمله من قبل فقلت لها .

— أنا راح ألبس بسرعه حالا . بس على شرط آخذ من رائحة (البرفان) الجميلة دية . فقالت بمرح وهى ما زالت متكأة بظهرها على الباب :

— آه يا عفريته أنا ماخبيش حاجه إلا لما تكتشفها .

— طبعاً هو أنا لى بركه غيرك ربنا يخليكى لى على طول العمر .

— طيب يا ستى علشان الدعوة دية خدى الزجاجة كلها وأنا راح أجيب واحده غيرها .

— لا لأ يامامى أنا إللى لازم أجيب لك هدية .

— معلش خديها إذا كانت عجبتك .

— إنت طول عمرك كريمة قوى يامامى .

ثم تنبهت فجأة إلى وقفتها واضعة يدها إلى الخلف ومتكئة على الباب فقلت لها :

— ماتتفضلى ياماما واقفة ليه كده لحسن تتعبى .

— يعنى موش عارفه أنا واقفة ليه ؟ فقلت بتعجب

— أبداً لسه موش عارفه ليه . آه إنت مخبية حاجة ورا ظهرك .

— إنت قربتى تفهمى . أنا فعلا مخبيـة حاجة لـكن المهم إيه هى ؟

ففـكرت قليلا وأنا أحصر عقلى بقدر استطاعتى فقلت لهـا :

— آه عرفت زجاجة البرفان مافيش غيرها .

كنت أقول لهـا ذلك بكل تأكيد . فقالت :

— أبداً دية حاجة بعيدة عن كدة خالص .

— طيب أنا عرفت وراح أقول حالا .

فنظرت إلى بعينين صافيتين وهى تنتظر إجابتى بفروغ صبر .

— ده لازم موديل للفستان الجديد ؟

أبداً إخص عليكى ياوحشة ديه حاجة أحسن من داه كله .

وأخيراً أخرجت من خلف ظهرها غلافاً أزرق وقدمته لى ثم تركتنى وخرجت . ففتحت الغلاف فوجدت صورة لهذا البلد الجميل سويسرا بالألوان الزاهية ومكتوباً خلفها على أسطرها القليلة بعض عبارات جميـلة حانية مختومة بكلمة : لك حبى وإعزازى وإلى أن نلتقى !

المخلص إلى الأبد

يحيى



. . وأدرت رأسي يدريجياً ببطء وركزت عيني إلى الصورة . .

وما أن انتهيت من قراءة سطوره الجميلة القليلة حتى أغرورقت عيناى بالدموع . لست أدرى أهى دموع الفرح أم دموع الندم ووخز الضمير !!

وأدرت رأسى تدريجياً ببطء وركزت عينى إلى الصورة الموضوعة بجانبى على الكوميدينو . ثم ركعت على ركبتى وتأملتها وأنا لا أجرؤ على أن أحملها واقفة . وهنا سمعت صوتاً منبعثاً من نفسى يقول : أتبكين ياخائنة ؟ أتبكين عليه وأنت لا تعرفين ما معنى الحب ؟ أنت ممثلة بارعة أنت كاذبة مخادعة تافهة قذرة . إن تلك الدموع التى تتساقط منك ليست إلا حبكا لمسرحيتك معه إنها دموع التماسيح . ما أقسى قلبك الأجوف . يالضميرك الميت !! لقد مر عليك ثلاثة أيام لم تقع عيناك على هذه الصورة . وأى صورة ؟ إنها صورة الشخص الذى أحبك وضحى من أجلك وداس على اعتبارات كثيرة فى سبيل إسعادك . وقدم لك إسمه وشرفه وكرامته ومستقبله لتشاطريه حياته . إنك نمرودة معدومة الضمير ليس لك حس أو وجدان إنك كالأفعى الرقطاء ناعمة الملمس مميتة السم... وظللت أحدث نفسى كذلك !

إن الدم الذى يجرى فى عروقى عصارة الدنس والخيانة وعدم الوفاء جسد قذر ونفس تعسة . وشقاء الجسد وتعاسته وقذارته من شقاء النفس وتعاستها وقذارتها .

ومضيت أقول لنفسى كذلك :

أولى بك أن تخفى ذلك العواء وتلك العبرات الزائفة بدلا من أن تتركيها ظاهرة واضحة لنفسك وللناس وحتى لكلبك .

عند هذا الحد ضربت بكلتا يدى على رأسى . ثم وجدت أصابعى تتسلل لتسد أذنى عن سماع صوت الضمير . ولكن هيهات وهيهات . إنه ليس صوت آدمى خلق أستطيع أن أسكته إنه صوت الضمير — صوت عقلى الباطن وكيانى المهتز المخلخل المعذب . ولا أستطيع أن أخرسه ولا بالموت إن صوت الضمير سيظل يكلمنى ويعــذبنى ويصرخ فى نفسى ويضربنى بسوطه المؤلم إلى الأبد .

فى هذه الأثناء كان كلبى رمز الوفاء والإخلاص يحوم حولى وأنا فى جلستى هـذه على الأرض أفـكر وأفـكر وتتصارع فى نفسى عوامل كثيرة وعواطف وأحاسيس مختلفة ومختلطة لا أعرف لهـا نهاية . حقاً إن لغة الضمير فصيحة للغاية وصريحة إلى أقصى النهاية . ولـكنها على نصاحتها وصراحتها لا تستطيع أن تمنعنى أو تعصمنى من الخطايا . فلماذا يستمر الضمير فى محاسبتى إذن ؟ لست أدرى : وهنـا لم أجد بداً من أن أمسك برقبة كلبى وأحدثه وأقول له فى ضعف :

— أيرضيك هذا ياكلبى يارمز الوفاء والإخلاص . أيرضيك

ذلك الظلم ؟ ما ذنبي في هذه الطبيعة التي ولدت بها ؟ ما ذنبي وأنا حائرة بين نزوات قلبي وطبيعة نفسي . ماذا أفعل ؟ قل لي أي شيء ليتك تستطيع أن تفرض على إرادتك إن كانت لك إرادة . وتمنعني وتمنع كياني المهتز من التصرف وفق أهوائه القذرة ورغباته المنحطة. ليتك ياعزيزي تستطيع أن ترشدني أنت قبل أن ترشدني الأيام والليالي وتعطيني درساً أكثر قسوة وأمر إيلاماً من الدروس الماضية .

ومع ذلك لم أستطيع أن أنظر مرة أخرى إلى صورته . إنها تذكرني بأخطائي وذنوبي . إن عينيه تعاتبني في هدوء وتنظر إلى في سخرية . لهذا كرهت أن أنظر إليه مطلقاً مهما كلفني الأمر . لأني إذا بكيت تكفيراً عن خطايا سابقة ، أو حتى عن خطيئتي فسأظل أبكي بقية حياتي حتى تنضب دموعي وتجف مقلتاي وسيكون هذا غير كاف وعندئذ سأضطر أن أبكي بدل الدمع دماء . ولا أترك أخطائي .

فأي الطرق تختارين ياشويكار يامن خلقت هكذا . . .

أفضى بي هذا السؤال إلى شيء من الراحة النفسية . إذ أنه مازال أمامي وقت كاف لتخيير نفسي بين طريقين كلاهما مر :

— أما إحداهما فطريق التوبة الخالصة النقية التي يسمى فيها

زيف أو تردد أو خذلان . طريق التوبة الكبرى وهو الطريق الذى لا بد أن ينتهى بالسعادة الحقيقية فى ظل زوجى الذى يحبنى وأحمل اسمه ويضحى من أجلى بكل ما يستطيع . أما الثانى فطريق النهاية المؤلمة — طريق حياتى الماضية التى درجت عليها والتى تجرى نوازعها فى دمى وتتمشى مع طبيعتى المستهترة .

ونهاية هذا الطريق الأخير معروفة لدى من الآن . نهايتها تحويل شرفى وأخلاقى وجسدى ونفسى وكرامتى إلى ذرات صغيرة يطؤها كل عابر طريق ! يطؤها بقدميه . ثم يتركها لغيره ليفعل مثل ما فعل !

الطريق الأبيض أم الأسود ؟ الخير أم الشر ؟ إن طريق الخير له روعته وطريق الشر له إغراءه وفتنته . وأنا حائرة ضالة بين هذا وذاك . . . أتمنى طريق الخير . وإن كنت أجد نفسى منساقه دون إرادة منى إلى طريق الشر — إلى طريق التهتك والاستهتار .

فماذا أفعل يا إلاهى !. وبينما أنا فى هذه الدوامة من الأفكار المتلاطمة بعضها ببعض كتلاطم الأمواج فى بحر هائج إذا بى أذكر كلام عمتى لى القاسى القارص كعادتها حين قالت وهى تتصدر المائدة فى يوم عيد زواج والدى وأبى جالس على يمينها :

— أعد يا أخويا هنا على يمينى علشان أتوصى بيك

فما كان من والدى إلا أن قال لها :

— أمرك يا أختى أنا عارفك طول عمرك وانت صغيرة تحبى على صغر سنك وجسمك الضعيف تفرضى سيطرتك على .

وضحكنا سوياً وأنا جالسه عن يسارها وزوجة أبى قبالتها من الجهة الأخرى . وبناتها بجانبى وزوجها بجانب والدى يربت على ظهره بقوة قائلا :

— يا راجل إسمع كلام أختك وأعمل زيى . أصل مافيش فايده . من شب على شىء شاب عليه .

وضحك الجالسون وأنا معهم فى شىء من التحفظ . ولكنها كمن لدغتها نحلة عنيدة حين قالت :

يعنى أصدك أيه يا إسماعيل ؟ هو أنا خلاص شبت فى عينك ولا أيه ؟

— أبداً يا مراتى يا حبيبتى هى الوردة مهما دبلت ريحتها فيها .

وكأن هذه الكلمات الأخيرة أرضت كبرياءها وأعادت إلى عينيها الجميلتين بريقهما الأخاذ أو ذلك الشعاع المطل منهما الذى يدل على حزم وبعض قسوة ولكن عن إخلاص . كانت عمتى كثيرة الشبه من والدى طويلة تميل إلى النحافة بيضاء بنية الشعر : أبرز ما فى وجهها عيناها . لكل هذه الصفات لم أغضب حين قالت لى فى شىء من القسوة :

— إزيك يا بنت إنشاء الله تكونى عقلتى وعرفتى غلطتك .

ولكنى لم أكن فى حاجة أن تكمل كلامها لأن عقلى كان يقول لى :

يا بنت إنشاء الله تكونى عقلتى . وإن لم تكونى عقلتى ففيش داعى إن السنة الجاية يكون لك أثر على ظهر الدنيا .

غير أنى تظاهرت بعدم الفهم وابتسمت فى هذه المرة من كل قلبى . إبتسامة الرضى عن مشاعرى المبعثرة التى لا أقوى على أن أجمعها وأجعلها تسير فى طريق مستقيم . ولأول مرة فى حياتى تمنيت أن تزيدنى عمتى من كلامها الموجع وتحذيراتها وتهديداتها ودعواتها فى وقت معاً .

لهذا حين سمعتها تبدأ فى نصائحى سكت عن الكلام وأنصت إليها ونظرت إلى الطبق الذى أمامى حتى أظهر لها استعدادى لسماع كلامها . ولكنها للأسف سكتت عن الكلام لأنهم حين وجدونى ساهمه ساكتة . بادارها أحدهم بقوله :

— سيبها بقـــه ياسنية النهاردة يوم جمعة وعيد جواز يعنى ياستى يوم مفترج إللى إنت عازوة تقوليهلها أجليه لأى يوم تانى. فكتمت شهقة كادت تخرج من قلبى لأنهم أسكتوها عن الكلام فى المرة الوحيدة التى تمنيت أن تزيدنى فيها من نصائحها :

وردت أمى قائلة وهى تغمز بعينها لأبى وعمتى .

ـــ صحيح النهاردة يوم مفترج . لكن مافيش حاجة لو عمتك تنصحك . عمتك زى أبوكى بالضبط موش كده ولا أيه ؟

فابتلعت حسرتى مع قطعة من اللحم كانت فى طريقها إلى معدتى :

ـــ أيوه طبعاً يامامى لك حق .

كنت آكل وأرفع بصرى من آن لآخر لأجد وجه والدى الطيب البرىء براءة الملائكة وهو يأكل ما وضعته له عمتى فى سرور وسعادة .

ثم أنقل عينى خفية وأرى وجوه بنات عمتى فادية ونادية وجميلة ولكنه هذا الجمال البارد الساكن الذى لا يتحرك مهما حدث . وكأنهم بعض التماثيل من الشمع التى لا حياة لها . تماثيل فى معاملتها مع أى فرد . حتى مع الأم . فأنا لا أعتقد أنهما يبادلانها أكثر من التحية العادية . تماثيل مع عمهم . ومعى أنا الأخرى . ليس هناك أكثر من الرسميات . وبينما نحن على مائدة الغذاء وكل فرد يأكل وهو فى سعادة ، وأبى يحمد الله على وجودنا كاملى العدد مثل السنة السابقة . ويتمنى أن نكون فى كل سنة هكذا . إذ بجرس التليفون يدق بإصرار . فدق معه قلبى واصفر وجهى وابتلعت الطعام بحلق جاف وقد انتابتنى قشعريرة هدمت جسمى . ولم أحاول أن أقوم وأرد على التليفون

وتركته يضرب رأسي بشدة وأنا ثابتة في مكاني . حتى جرى إليه أحد الخدم ورفع السماعة وكأنه رفع غمه من على صدري حين قال موجهاً كلامه لأمي :

— عزيزه هانم على السماعة عايزه تكلم سيادتك

فقامت أمي مسرعة وهي فرحة باتصال عزيزه هانم بعد غيبتها الطويلة في أوربا للعلاج والنزهة معاً . وأكملت أنا طعامي في هدوء وقد أخذت عمتي تتكلم مع والدي عن عزيزة هانم وعن آخر أخبارها حتى عادت والدتي وأخذت مكانها باسمة . ثم وجهت إلى كلامها قائلة :

— والله ياشويكار عزيزه هانم سألت عليكي وعاوزه تشوفك . علشان كده لازم تستنيها هي جايه بكره الساعة حداشر صباحاً .

— طيب أمرك ياماما هو أنا يعني هروح فين ؟

وكأن عبارتي هذه . بعدم خروجي أراحت عمتي فنظرت إلى برضى واطمئنان .

وانقضى اليوم الأول والثاني والثالث ولا جديد غير مجيء عزيزة بثرثرتها اللطيفة المعهودة وحركاتها الرشيقة . حتى خيل

إلى أن ما ترويه ليس إلا مغامراتها وهى فى ربيع عمرها . ولكنها تأبى أن تقول إن هذا كان فى أيام الشباب . فترويه كاملا وكأنه حدث أمس فقط فكنت أسمع منها وأنا سعيدة وأعرف منها آخر الموديلات وآخـــر مبتكرات تصفيف الشعر . وكانت لهذا السبب تسأل عنى دائماً ولا تعود من الخارج إلا ومعها هدية قيمة لى . وفى اليوم الخامس اتصل الدكتور بوالدى وتجاذبا اطراف الحديث . وفى حوالى الساعة العاشرة مساء دق جرس التليفون لجأة فى حجرتى . فرفعت السماعة وأنا ألهث . ولكنى ترددت ووضعتها مرة أخرى بيد مرتعشة قلقة حائرة . واختبأت فى الفراش ووضعت الغطاء على رأسى . وكان غطاء خفيفاً . فهو لم يزد على ملاءة وكوبرته . إذن سأسمع رنين التليفون . فتسللت يدى إلى وسادتى ووضعتها على أذنى . وأغمضت عينى واحتوانى السرير . وبعض من نفسى يتمنى ان لا يدق مرة أخرى . وبعضها الآخر يتمنى ألا ييأس المتكلم ويعاود الرقم مرة أخرى .



. . واحتوانى الفراش ووضعت الغطاء على رأسى . .

ونجح البعض الآخر فدق الجرس مرة أخرى فتقلصت يداى على وسادتى الصابرة الصامتة . وأغمضت عينى بقوة وكأنهما اللتان تسمعان دقه المتواصل . ولكن كانت عزيمتى أقوى من رغبتى . فرفعت السماعة ووضعتها بجانب التليفون وأنا أسمع صوته صارخاً :

— الو الو الو الو . . . ال . . . ال

ونمت بعدها نوماً قلقاً مفزعاً . فتارة أروح فى إغفاءة قصيرة . وتارة أقوم وأجلس فى الشرفة وأشرب سيجارة تلو سيجارة . ثم وقعت عيناى على الطقطوقة . فوجدتها ممتلئة عن آخرها بالأعقاب والعلبه فارغة والكبريت لم يبق منه غير بعض أعواد معدودة . فدهشت وانتابنى اضطراب من هذا المنظر المثير للغرابة وكانت الساعة قاربت الرابعة صباحاً وأنا أقول .

لماذا اعتبره منظراً غريباً ؟ فترد نفسى قائلة: لأنك غير راضية عن تصرفك . وإلا لما فعلت هذا. فقد كان أولى بك أن تنامى فى هدوء ولا تثيرى حولك هذه الزوبعة الكبيرة . ولكن بعضاً من نفس رد وكأنه صوت ثالث محايد يقول: لا تظلميها أيتها النفس . ما ذنبها هى . فى ذلك ؟ فهكذا خلقها الله قوية الإرادة متجمدة المشاعر وهكذا خلقها الله كلها عواطف ومشاعر حساسة . لقد كان الأولى بها أن تخلق فنانة فهى أقرب إلى الفنانة منها إلى البوهيمية .

وماهى إلا لحظات حتى رأيت ضميرى يصرخ فى عناد وقوة ؛ وهو الشىء الذى طال نعاسه . ثم استيقظ فجأة . وهو كالميزان الحاس وضع ليعاقبنى ويحاسبنى . قال :

ماذا تعنين أيتها الجبهة المحايدة . أنا لا أسمح لك أن تقولى ما ذنبها . وإلا لماذا إذن أنا موجود فى ذلك الهيكل البشرى . وعلى الأخص ذلك الشىء الذى يسمى رأس المرء . ثم سمعت بعضاً من نفسى كذلك يقول :

— بدلا من أن تتعلسف أيها العقل إفعل أى شىء . تصرف بأى طريق يحلولك وتجعلنى ذات إرادة قوية . لا تضعف مطلقاً . بدل أن تطلق هذه العبارات وتوجه النقد اللاذع فقط . أنا اليوم بالذات على استعداد أن أسمع كل كلامك وإرشاداتك أيها الضمير ولن أعترض مهما كلفنى الأمر .

ولكنى سمعت السخرية بعينها تنبعث من وراء أسوار جسدى . وتضعف إرادتى وتجعلها تتفتت ذرات يدوس عليها العالم بأسره وذلك حين سمعت هذا الصوت :

أنت هكذا . أنسيت المرة الوحيدة التى أرادت فيها عمتك أن تكلمك وترشدك وأنتما على مائدة الغذاء ؟ . ولكنك أخفقت وتقهقرت . وما ذلك إلا لأنه يوجد شىء وأكبر أقوى منك ومن أى فرد آخر . إنه القدر والظروف وعوامل البيئة !

وهنا كادت صرخة غيظ مكتومة تخرج من صدرى لعناد القدر معى . ولكنى لم أشعر إلا ويدى تأخذ صورة يحيى فى حركة مثيرة وأنى أتأملها جيداً حتى لأكاد أسألها إن كانت شاعرة بى أم لا . ووجهت لها كلامى قائلة :

— أرأيت يا يحيى ؟ أرأيت بعينيك ماذا يفعل بى القدر ؟

ليتك قريب منى . ولكنى أظنك تفهمنى . ثم أقول فى صوت كله ضعف وذلة :

دبرنى بربك يا عزيزى وأنت تعرف إنى بذلت كل ما فى وسعى فى البحث عن أى شخص أنقاد له فى الطريق السوى فلم أجد إلى الآن . ولكن من أدراك ربما أجد غداً أو بعد غد ؟ أو ربما تحدث أية مفاجأة . ولو كانت كارثة تلهينى عن نفسى . ثم لم أجد من يرد على أو يتفوه بكلمة أو حتى إيماءة رأس .

فأمسكت بالصورة بكلتا يدى وأنا أهزها بعنف وأقول :

— طبعاً أنت لا تسمعنى لا تشعر بذلك الصراع العنيف الجبار الذى يتلاطم فى نفسى. من أشار عليك أن تسافر فى أحرج فترة من حياتى معك . إنى فى حاجة إلى أن أجد من يرعانى . ويوجهنى . ويقودنى إلى النور ويستولى على عواطفى ومشاعرى كلها ، ويسيطر على ويرد عنى .فبذلك أحبه وأخضع له. حتى أنه إذا

قص شيئاً من شعره تألمت له لأن شعره شيء منه وأنا أحب كل شيء منه. ومع هذا لم أسمع جواباً. فألقيت بالصورة على السرير. وألقيت بجسدى المثقل بالهموم هو الآخر على السرير. وبكيت بحرارة ومرارة حتى خيل إلى إنى إنسانة وحيدة ضلت طريقها وسط صحراء جرداء مترامية الأطراف لا أسمع لها صوتاً وليس هناك حيوان ضار مفترس يقضى على ويريحنى من حياتى. فأنا فى صراع بين المحافظة على نفسى لأجل الرجل الذى سأحمل اسمه. وبين رغبتى فى أن أجد الحنان والعطف يشملنى من أى رجل.

ما أشد هذه المعركة النفسية التى كنت فيها كطفل انفصل أبواه بعضهما عن بعض. وبقى هو فى حيرة وقلق. لقد أصبح مخيراً بين أمرين ولابد أن يختار.. وبنفس حيرتى هذه رحت فى إغفاءه طويلة. ولم أشعر إلا وأبى يدخل على الحجرة. وقد وضع يده على ظهرى ليوقظنى قائلا:

— قومى يا شويكار قومى يا بنتى علشان عوزك شوية.

— آه يا بابى جسمى مكسر والله.

— معلش أومى فين الشباب والرياضة. أمال العواجيز اللى زينا يعملوا إيه.

فتقلبت وتثاءبت وهممت أن أقوم. ولكنى شعرت تحتى بشيء صلب وعرفت أنه صورة يحيى التى كنت أحدثها وأنا فى ثورتى قبل النوم.

فلم أجرؤ على رفعهـا أمام أبى . فتظاهرت أنى أعبث بالفراش وأقلبه رأساً على عقب حتى أغطى هذه الصورة . ثم قمت منتفضة . أقبل أبى وأنا أتمنى أن يضمنى إلى صدره إلى الأبد . إن حنانه لكفيل بأن يزيل عنى جميع الآلام والمتاعب. ولـكنه أبعدنى عنه فى رفق وفـكر قليلا ثم قال :

— إنت عارفه إن لازم كان يحي ييجى بعد أسبوعين تلاته على الأكثر لـكن ... وهنا خفق قلبى خوفاً عليه وقلت .

— لـكن إيه يا بابى فيه حاجة حصلت ؟

— أبداً يا بنتى ما فيش حاجـة ربنا ميجبش حاجة وحشه . بس أنا لقيت فى البوستة جواب بيقول فيه إنه راح يتأخر حوالى ثلاث أشهر كمان لشغل ضرورى وإنه بيسلم عليكى .

— وإمتى وصل الجواب داه يا بابى ؟

— النهاردة أصل الساعة دلوقت عشرة .

— بس عشرة إزاى . أنا نمت محستش . تتصور يا بابى أنا بأفتـكرها ثمنية .

— لا أبداً إزاى أنا ساعتى مظبوطة. وعلى العموم متزعليش بكره ييجى ثانى بالسلامة .

وخرج ولـكنه توقف فجأة واستدار إلى ضاحكا وقال :

— على فـكرة أنا نسيت أقول لك حاجة مهمة جداً .

— إيه يا بابى هو فيه تانى حاجة أهم من كده .

— أبوه بيقول لك إنه هيجيب لك مفاجأة متخطرش على بالك أبداً . فكرى إنت بقى وشوفى لغاية ما ييجى .

وتبادلنا الابتسامات القلقة الصفراء . وخرجت خلفه ونزلنا السلالم ودخلت إلى حجرة مكتبه حيث سلمنى الخطاب باسماً للمرة الثانية . وتناولته وخرجت أعدو إلى حجرتى ودخلتها وأغلقتها بالمفتاح . وفضضت الرسالة وقرأتها فانتابنى غيظ وحقد عليه وعلى عمله . وشعرت بتحدى القدر لى فى عناد بلغ أعلى درجاته وأوج اشتعاله . وكأنى فى معركة وكأن أعدائى أحرقوا كل شيء ووصلوا إلى أوج إنتصارهم بأن أشعلوا الشيء الوحيد الباقى لى وهو العلم الذى يرفرف فى الهواء أعلى من أى شيء آخر . فحطموا معنويتى وقضوا على الأمل الوحيد الباقى لى . فشعرت بحقد على الدنيا وعلى السعادة والسعداء . وانتابتنى نقمة سوداء خرساء بددت كل أمل لى فى هذه الحياة . ولم أشعر إلا ويدى تأخذ الصورة من بين طيات الفراش وتضعها فى دولاب الملابس مقلوبة على وجهها . ثم أغلقت الدرج بقوة وكأنى أستمد من صوت ارتطام الدرج . القوة والاستمرار . ثم تناولت الخطاب وكل ذرة من كيانى ونفسى تسخر من هذا الخطاب وهذا القدر فى قسوة لاذعة وتهكم لا أعرف له مدى . وأشعلت النار فى الخطاب وتركته يحترق أمامى حتى أتت عليه .

ثم عدت إلى نفسى أحدثها من جديد :

ماذا أفعل أنا ؟ وما جدوى هذا التحدى لورقة وبضع قطرات من الحبر ولكنى مع هذا الشعور تنفست هواء حريتى وتحررى من القيود ووجدت يدى تعيد السماعة إلى مكانها فى رفق . أواه - لقد نسيتها مدة طويلة !! بعد هذا بدأت أرتدى ملابسى فى سرعة . وبقدر فرحتى باسترداد حريتى وتحررى من رباطى بهذا الرجل . ومن ذلك الوقت بدأت أترقب رنين التليفون الذى أصبح أحب شىء إلى نفسى . ولم يخب ظنى . فهاهو يدق دقاً متتالياً سريعاً ورفعت السماعة بصدر منشرح ونفسى سعيدة وقد تلاحقت دقاته من فرط النشوة التى انتابته . وسمعت صوته يقول :

— ألو مدموازيل شويكار ؟

— لأ يا دكتور هى موش موجودة . . . وسكت قليلا وأنا أحبس ضحكاتى .

موش موجودة إزاى ، لأ — معرفتيش تتقنيها يا شويكار .

فضحكت بأعلى صوتى ضحكة كنت كتمتها طويلا فانطلقت تهز أرجاء الحجرة . وقلت :

— إنت إزاى عرفتنى ؟

— دية حاجة بسيطه أوى علشان قلبى . هو إللى عرف .

— آه حقيق أنا نسيت . المرة الجاية هآخد بالى كويس .

ومرت فترة صمت قصيرة. ولم أسمع فيها حتى أنفاسه . وأخيراً قال فى شىء من الألم :

أنا طلبتك إمبارح يظهر إنك مكنتيش موجودة ؟

فتذكرت إنى كنت رافعة السماعة حتى لا أسمع صوته يغرينى . وأذهب إليه شاعرة بالحاجة إلى الحنان والصداقة . ثم تمالكت وتحاملت على نفسى وفى سرعة البرق كنت أكذب عليه وأقول :

— أيوه أنا فعلا مكنتش موجودة أصلى خرجت شوية رحت عند صحبتى ليلى وسهرت هناك وكان عندها « بارتى » .

— آه علشان كده . تتصورى إنى طلبتك تلات مرات . وكنت بأفتكرك سافرتى العزبة .

— أبداً موش معقول أسافر .

فرد من فوره قائلا فى حماسة باردة .

— طبعاً إزاى لك حق أظن فاضل زى أسبوع على مجيئ يحيى بك فرددت عليه بشىء من الإهمال لهذا السؤال وقلت فى فتور .

— يا ريت ده بعت النهاردة بيقول إنه راح يتأخر شهرين تلاته كان فرد وكأنه تنفس الصعداء وقال :

— على العموم متقلقيش أبداً. أى حاجة عاوزاها أنا موجود وأنا على استعداد إنى أخرج وأفسحك علشان متشعريش بأى ملل .

انتهت هذه المكالمة ووضعت السماعة مكانها وقد اتفقنا على أول لقاء فى الخارج الساعة العاشرة صباحاً أمام باب الكوفنت جاردن فى طريق الهرم .

ومر اليوم ولا جديد فيه كأى يوم سابق . أمضيت أغلبه فى القراءة وأمضيت الجزء الآخر فى الحديث مع والدتى عن الموضة . ولكنى كنت أشعر أن معاملة من فى المنزل لى بعد ذلك الحادث بدأت تتغير تغيراً ملحوظاً . فإذا أردت الخروج سألنى والدى أسئلة تدل على تغيير فى سلوكه معى — أو بالمعنى الأصح التأكد من كل شىء قبل الموافقة عليه . وكذلك زوجة أبى . فكنت أتظاهر بعدم الفهم حتى لا تشك فى نواياى . ونمت ليلتها وأنا أسمع صدى صوته فى أذنى يجرنى جراً إلى أن أفكر فيه . وحين استيقظت فى الصباح كنت أشعر بلذة وأنا أتنفس أو أتنهد . وشعرت أن أنفاسى وتنهداتى تخرج منطلقة حرة كما كنت فى الماضى . فلقد صممت على أن أتحرر من القيد الذى يربطنى بيحيى وأن أعود كما كنت خالية من هذا الرباط . لاهية أتنقل من صداقة إلى صداقة كما تتنقل النمرة بين الأدغال . ثم ارتديت بنطلوناً أبيض وبلوزةعارية الظهر بيضاءهى الأخرى . وهناك كانت والدتى تجهز الإفطار على صينية لوالدى فقد اعتاد فى أغلب الأحايين أن يتناولهذه الوجبه فى حجرة النوم .

— صباح الخير يا ماما .

— صباح النور أنا هأحسدك على صحيانك اليومين دول بدرى . ولا يظهر إنك بتعودى نفسك على الصحيان بدرى علشان تبقى تفطرى يحيى بنفسك . موش كده ولا إيه ؟

فتنهدت فى ضيق حين تذكرت يحيى . لكنها لا تعلم أنى قد تخلصت من قيودى معه وعزمت على ألا أذكره مطلقاً . غير أنى لا أستطيع أن أسيطر على كلام الناس وعلى رأيهم فى كل شىء أعمله مرتبط بهذا الرجل وقلت . .

— أبداً بس أصلى بأنام بدرى .

— لكن إنت لابسه كان رايحه فين كده ؟

وسمعت لكلامها رنه التحدى . فإنى قادمة على أن أفعل شيئاً بمحض إرادتى كسابق عهدى . فغلى الدم فى عروقى . ثم تظاهرت بالهدوء وقلت :

— أبداً هأروح فين : مشوار صغير لغاية الخياطة .

— خياطة أيه إحنا موش اتفقنا وأخدنا منها ميعاد الأسبوع ده و . . .

— أيوه يا ماما بالظبط بس فى أسبوع موش ممكن علشان هيكون شم النسيم قرب بيجى . وكل الناس عاوزه تفصل فساتين وعلى كده فستانى موش راح يخلص . وتأجلنى لبعد شم النسيم .

— طب وإيه يعنى إنت هتعملى زى الأطفال . ولازم تلبسى فستان جديد على شم النسيم ؟

فقمت أقبلها وأربت على ظهرها فى سرعة .

— أيوه والنبى يا مامى ربنا يخليكى علشان خطرى نفس الفستان يتفصل وألبسه . أصلى القماش عجبنى أوى .

وبإلحاحى هذا كله تغلبت عليها وابتسمت ابتسامة الرضا . ثم قالت وهى تضحك .

— زى بعضه علشان متزعليش وبعدين تشتكى ليحي لم ييجى.

وبعد مرور ساعة من الزمن كنت فى عربتى أنهب بها الأرض نهباً فى أحب طريق إلى نفسى وهو طريق التحرر — طريق الضحكات العالية — طريق لا دموع فيه ولا أحزان ولا تردد ولا يأس — طريق لامع كالأمل . ووجدت يدى تعبث بمفاتيح الراديو لتنطلق منه قطعة موسيقية غربية راقصة جعلتنى أضغط على البنزين . فانطلقت العربة تسابق العربات الأخرى السائرة فى طريق الهرم . وتتسابق مع نسمات الربيع . وهى تتسلل إلى صدرى . وتملؤه بعبيره الدافىء النشوان . وقلت لنفسى .

— كم من آدميين يتمنون أن تصبح أعمارهم ولياليهم ربيعاً زاهراً مشرقاً . ثم انحنيت مسرعة وقد أحدثت العربة صوتاً

عالياً خيل إلى وقتها أنها تضحك مقهقة نشوانة هى الأخرى .
وأمام باب الكونتنت جاردن أوقفت العربة فى مكان تغطيه الأشجار . وتقدمت أخطو كفراشة تمشى بين الأزهار . حتى وصلت إلى مكانه . فتمهلت قليلا ومشيت على أطراف أصابعى وأنا ما زلت خلفه . وحين اقتربت من إحدى الموائد مددت يدى خلسة وانتشلت من عليها إحدى الفوط البيضاء . ووضعتها على ذراعى ومشيت بثقة بضع خطوات حتى وصلت إلى يمينه فجأة قلت له :

— البيه يطلب إيه ؟

فالتفت إلى مستعجباً . وهب واقفاً من مقعده . وأمسكنى من ذراعى قائلا :

— أطلب شويكار هانم بحالها فى طبق ؟

— الحق يادكتور عرفت ترد .

وضحكنا سوياً وجلسنا نتسامر . ولكنه بادرنى بالسؤال فجأة وقد ارتسم على وجهه أمارات الاستطلاع :

— حقيق حكاية الجواب اللى قلتيلى عليه بتاع يحي ؟

— أيوه يا دكتور والله بيقول فيه إنه راح يتأخر شهرين تلاته تقريباً .

— طبعاً ياستى إنت مطمئنة ، وحاطه فى بطنك بطيخة صيفى . مين

أدك . هو فعلا راجل ممتاز ومركزه كويس قوى يا شويكار . داه لازم إنسان طيب علشان ياما فيه شبان كثير كويسين لكن ملهمش حظ أبداً .

— ياه دكتور وبعدين إنت راح تحسدنى ولا إيه ؟

— أبداً أنا آخر من يحسد . ثم أضاف ضاحكاً .

— حقيق أنا عنيه زرق لكن ميعرفوش يحسدوا .

— لا لا إوعى تكون زعلت يا دكتور أنا بأهزر بس .

— أزعل من إيه يا ريت كل الزعل اللى الواحد يزعله فى حياته من النوع ده .

قال هذا الكلام بحزن عميق . وكأن كلماتى السابقة قلبت كل ذكرياته وآلامه رأساً على عقب . فلم يحتملها رأسه المفكر المرتب. فاضطر أن يتفوه بهذه الكلمات الحزينة. ولكنى شعرت بشىء من الخجل وأردت أن أسرى عنه فقلت :

— وبعدين يا دكتور إحنا قلنا بلاش التشاؤم ده الحقيقة لازم يا تقول لى إيه حكايتك يا بلاش تجيب السيرة ديه خالص فقال مازحاً :

— أنا خلاص موش راح أتكلم أبداً . إيه رأيك « شيك هاند » على كده .

فوضعت يدى فى يده . واستبقاها حتى شعرت بشىء من الحنان



.. البيه يطلب إيه ؟

والرقة يسرى فى كيانى . ولكنى سحبتها بخفة وكأنى سلبته روحه على غرة . فبدأ الألم والحسرة على وجهه حتى خيل لى أن أضع يدى فى يده مرة أخرى لأمسح عنه هـذه الآلام التى تجسمت على وجهه . انتابنى خوف مفاجىء حين لمحت من بعيد جمعاً من صديقاتى كباقة من الورد يدخان مع بعض الشبان وقد أحدث الجميع ضوضاء . فهـذه تتكلم بصوت عال وأخرى تصفر بفمها وثالثة تسوى شعرها بيدها لتطمئن على جماله . وأنا فى ذهول لا أستطيع أن أفعل شيئاً إلا أن تركزت عيناً عليهم . وحين وجدنى فى هذه الحالة سألنى :

— أيه فيه حاجة ؟ بتبصى على أيه ؟

— أبداً بس شفت شوية بنات أصحابى بيقربوا منا .

— ياه ده إحنا لو رحنا فى آخر الدنيا برده مافيش فايدة .

— أيوه فعلا لـكن على العموم هم شلة لطيفة أوى .

عند هذا الحد اضطررت أن أقوم وأشير لهن بيدى وكأنى فرحة لأنهن أصبحن على مقربة منا .

— هالو إنتوا موش شايفينى ولا إيه؟ فردوا كلهم فى صوت واحد .

— هالو شويكار إنت هنا من بدرى .

— لا موش بدرى .

— مين إللى معاكى داه ؟

كان هذا السؤال من صديقتى ليلى كعادتها .

— يعنى موش عرفاه ده الدكتور .

— دكتور إيه ؟

— الدكتور اللى عالجنى فى المستشفى. فردوا جميعاً فى صوت واحد .

— آه الدكتور . أمال فين يحيي بك ؟

— هو مسافر سويسرا .

— وهيرجع إمتى .

— كمان شهرين تقريباً . اتفضلوا اتعرفوا على الدكتور . فقالت ليلى .

— آه والنبى لازم . ونشكره كمان على العناية اللى اعتنى بها علشانك .

فرد الجميع فى فتور .

— أيوه طبعاً .

كنت أشعر أنهن يتفحصننى بعين الريبة والشك . والشبان يحملقون فى وجهى باحثين فيه عن آثار هذا الحادث. وأخيراً وبعد أخذ وعطاء . تقدموا بضع خطوات إليه وصافحوه شاكرين متفرسين . وهنا قالت ليلى :

— بالمناسبة ديه يا دكتور إنتوا الاثنين معزومين عندى الليلة أنا عاملة پارتى لطيفة .

— ياريت يامدموازيل ليلى أنا عندى المستشفى لازم أكون فيها للطوارىء مين عارف .

— ياسلام يادكتور تكسفنى كده من أول مرة . على العموم حضرتك قبل ما تيجى تسيب نمرة التليفون ؟ . علشان يمكن الاتصال بيك .

— حاضر ياأفندم هأحاول .

— إن شاءالله يادكتور و . . . . ولم تكمل كلامها حتى قاطعها أحد الشباب قائلا فى صوت خافت .

— حتى يادكتور ده يحيي بك ينبسط أوى لما يعرف إنك مع شويكار .

— متشكر أوى أنا أتعشم كده .

ثم تصالحوا مرة أخرى وانصرفوا جالسين فى جهة نائية عنا . وعدنا نحن إلى جلستنا . وأنا أفكر فيهم قائلة فى نفسى :

لقد مضى على زمن كبير لم أختلط بهم فمنذ خروجى من المستشفى لم أرهم ولم يرونى فأنا اليوم أرى فى أعينهم تساؤلا وحباً للاستطلاع إن أعينهم تحدثنى ألا أرفض لهم مطلباً وأنساق معهم مرة أخرى. فيما هم فيه . فقد تعودت أعينهم على صورة لى براقة عابثة ضوؤها لا يخبو . وبعـــد نصف ساعة أخرى . انصرفنا وعلى باب الكوفنت جاردن افترقنا بعد أن وعدنى أن يفكر

فى الذهاب إليهم . وعدت أنا إلى منزلى . ودخلت على أطراف أصابعى فى بادىء الأمر حتى أطمئن إلى سير الأمور فى مجراها . وبينما أنا أطلع إلى حجرتى إذ لمحت أبى فى مكتبه وبجواره الكلب شبه نائم على الأرض وكان أبى يدخن السيجار وقد انكب على خطاب يقرؤه فدخلت عليه :

— صباح الخير ياپاپى أنا مشفتكش النهارده وماما قالت لى إنك نايم .

صباح النور يابنتى أيوه إنت لسه جايه من بره ولا إيه ؟

— أيوه كنت فى مشوار .

— آه لازم عند الخياطة . ماما قالت لى . إنتو ياستات متشبعوش من المودة أبداً .

— أيوه أصلى عاوزه أحضر كام فستان كده .

— ياله ياحبيبتى طمنى ماما لحسن قلقت عليكى علشان اتأخرتى .

— حاضر ياپاپى .

ثم خرجت أعدو إلى حجرتى ووجدت أمى بها وأم وردة قائمة على تنظيمها وقد قلبتها رأساً على عقب وأحد الخدم متكىء على رجليه يدهن الباركيه .

— هالو مامى

— هالو شويكار روحتى ولا لأ ؟

— أبوه يامامى
— وقصت القماش ولا لأ ؟
— طبعاً طبعاً
— كده ياشويكار على ماما برده ؟
— إيه فيه إيه ياماما يعنى موش مصدقانى طب والله . . . . .
— إسكتى إسكتى بلاش حلفان تعالى أنا عيزاك بره .

فخرجت وأنا أرتجف وأتمنى لو تنشق الأرض فأدفن فيها . ودخلت خلفها فى حجرتها . وجلسنا سويا على السرير وبادرتنى بالقول وهى تحاول ضبط أعصابها :

— ليه ياشويكار تكذبى على؟ أنادخلت أودتك ولقيت قطعة القماش على الكنبة . فقلت معلهش يمكن نسيتها وترجع بعد شوية تأخذها . لكن مرجعتيش. وفى الآخر جاية تقوليلى إن الخياطة أصتها وفصلتها ؟ فخجلت من نفسى وتمنيت أن أغرب من وجهها وأغلق على باب حجرتى . لكن خانتنى أرجلى وكأن ركبتى أصابهما شلل أقعدنى أمامها وجعلنى أقول لها كل ما عملته بالتفصيل وبصراحة تامة . وبعد أن استمعت إلى تماماً علقت على كلامى قائلة :

— إذا كنت بتخرجى معاه مجرد فسحة بس ما فيهاش حاجة وإذا كنت . . . . ولم أدعها تكمل جملتها وقاطعتها قائلة :

أبداً هو مجرد خروج للفسحة ليس إلا . أصلى زهقت ويحي

كان بعت يقول هيتأخر : هو حد يسيب خطيبته بالشكل ده ؟ ومين عارف يمكن يكمل السنة ديه هناك ؟

— أبداً إزاى بقى ياشويكار إعقلى ده شغل. دية حياته ومستقبله ومستقبلك . عاوزاه يسيبه علشان ييجى يقعد جنبك . لا لأ داه مأسمهوش كلام . إحنا قلنا كبرتى وعقلتى إنت . . . . .

فشعرت بضيق تحط على يحي وعلى نفسى وعلى غبائى الذى جعلنى أنسى قطعة القماش حتى يكشف القناع عن نفسى بصورة فاضحة مكشوفة . ثم استأذنت وخرجت إلى حجرتى وأغلقتها على بالمفتاح. ثم رفعت سماعة التليفون أتبادل الحديث مع بعض أصدقائى القدامى أو من أسميهم أكثر من أصدقاء . . .

وجلست أشكوله همى فى غيظ وقلق على حظى العاثر وعلى سفر يحي . فكان يهدىء من روعى ويشرح لى موقف يحي محاولا تبرير سفره وتركه إياى وحيدة على هذا النحو . ولكن كان قد فاض بى الألم . فبعد أن أغلقت التليفون تمنيت أن أخرج وأقول بأعلى صوتى لجميع من فى البيت : أنا لا أريد أن أتزوجه لا أريد أن أرتبط به مهما كلفنى الأمر . لم يعد يهمنى كلام الناس ماذا سيقولون عنى أكثر مما قيل . لن يهمنى شيء سأسعى وراء العذاب والشقاء . سأجر خلفى الهول والبلاء سأمشى بجوار القدر جرى مع القضاء على آخر الشوط . لقد حاولت وباءت محاولتى بالفشل بسبب القدر ولن

يعنيني شيء مما سيقولون من الكلام على ومن تتبع أخباري . وستتعب ألسنتهم السامة من النهش في جسدي وعرضي .

وسأتعود على سماع كلامهم. ثم سكت عني الغضب حين سمعت طرقاً على الباب وقمت وفتحته . فوجدت زوجة أبي قبالتي وهي تبتسم ابتسامة عتاب قائلة :

— إتفضلي ياستي والله الجدع ده مظلوم معاك . شوفي أهو أنا لسه نازله عند أبوكي وجه البوسطجي ومعاه بالتلغراف ده إقري كده :

وفتحته وقرأته فإذا به سأحضر غداً الساعة الثالثة :

يحيى

لم أشعر بعد قراءة البرقية إلا بشعور الدهشة . وأخذت الأفكار تروح وتجيء ورأسي يدور مع الجيئة والذهاب فتدور معي الأرض وأنا أتخبط مع نفسي وقلبي . ثم شكرت أمي ودخلت إلى حجرتي وأمسكت بالتليفون وتحدثت مع الدكتور . وأفضيت بالخبر إليه ورجوته أن يحضر ليقابله معي غداً . ثم وضعت السماعة . وعاودني الشعور بالحيرة والتعاسة . لست أدري ما الذي جرى لي؟ وهل أحب يحيى أم أحب الدكتور . لا أجد جواباً وقد خيل لي أن الشمس تطلع من الغرب

ثم تغيب فى الشرق والبحار تصب فى الأنهار لا العكس والعالم كله يرقص فوق بركان من النار .

أين هؤلاء الذين يعرفون كيف يميزون الفرق بين الأمل والألم ؟ . حتى يروا شويكار وهى فى حيرة الظباء الضالة ؟ وقد وقفت وسط حجرة النوم مملوءه بالأفكار والوساوس . والأحلام والأوهام . كم أنا خائفة من مواجهة نظراته الهادئة العميقة التى تلهب وجهى بشرر من نار يجعلنى ألف وأدور بقية عمرى لا أعرف ما أفعل وما أصنع . إنى حيرى وسط الأنوار والزوابع . ولكن نبأ وصوله قد أثار جواً من الفرح والحركة الدائبة فى المنزل وكلما رآنى أحد هنأنى وتمنى لى حظاً سعيداً حتى خيل إلى أنه هو الآخر سعيد . فهو يلف ويدور حولى ثم يقف على رجليه فرحاً ينطق بعبارات التهنئة .

وفى هذه الليلة آويت إلى مخدعى مبكرة ونمت هرباً من التفكير ولكنى لم أرفع سماعة التليفون . وفى أثناء نومى القلق كنت أصحو على رنين التليفون . وحين أهب لأرد عليه يتوقف عن الدق . وكأن إنساناً متردداً يقرر فى لحظة أن يكلمنى . ثم يعود ليعاتب نفسه ، ويكبح جماح رغبته ويترك السماعة . وعرفت أنه لابد أن يكون الدكتور . وبعد أن صحوت كان أول شىء قمت به أننى طلبت الحلاق وحجزت معه موعداً فى الساعه الثانية عشر تماماً . وبعد

هذا توجهت إلى الحمام وتناولت حماماً ساخناً خيل إلى أنه أراح أعصابى المرهقة ، وهدأ من تفكيرى بعض الشىء . وبعدها تناولت طعامى على عجل . وكنت ألمح زوجة أبى على المائدة بين آن وآخر ولم أجد فى عينيها فى هذه المرة شرراً وشيئاً يشبه الشرر . بل وجدت عندها الراحة والاطمئنان الذى تصبو إليه نفسى — أما أنا فقد كنت حائرة بين يحيى والطبيب . إذ كان يجب أن أبدى رأيى فى هذا الموضوع ولكن أنى لى هذا وكيف ؟ إن لكل منهما فتنة ومكانة فى قلبى فكيف يمكننى أن أصبح فى آن واحد المتهم والقاضى والجلاد ؟

قضيت وقتى كله فى أخذ وعطاء ، فى مد وجزر ، فى لين وشد. إن الرأى فى النهاية رأيى إما يحيى أو الطبيب . ولكنى كنت مملوءة بالمعانى المختلفة . . . لقد عييت بكل الكلمات والأحاديث . بكل العواطف المتناطحة بالحقد والحب بالبغض والعطف بالشموخ والتدهور . كنت مملوءة بكل الأفكار المتناقضة. ما أشقى الحياة عندما تهيم فتاة مثلى فى ليل لا تعرف له صبحاً ولا مساء .

كان الصبح فى ذلك اليوم يظهر رويداً رويداً وكان الضحى يهم ويصعد رويداً والشمس تلقى بعيونها من بين فتحات النوافذ فتبدو بين الفينة والفينة هزيلة ضعيفة. ثم لا تلبث أن تختفى وراء غمامة كبيرة سابحة فى السماء .

لقد كانت الطبيعة هى الأخرى ساخرة ثائرة . كان الهواء

يصفر ويصفر . كان كل شيء يبدو فى صراع ونضال فى سبيل الحياة . كذلك كان شأنى مع الوساوس والأفكار ولكنى أفقت من كل هذا على صوت أمى وهى تقول .

— بصى ياشويكار إنت هتروحى إنت وأبوكى تقابليه فى المطار . لكن أنا راح أستنى هنا علشان أشوف نحضر إيه للشاى والعشاء كمان .

— كويس أوى ياماى .

ثم دخل والدى علينا .

— صباح الخير يا أولاد . ورددنا فى صوت واحد .

— صباح النور يا بابى .

— أنا شايف شويكار زادت النص موش كده ولا إيه وأم شويكار كمان وشهانور . .

وابتسمنا جميعاً ونحن نتجاذب أطراف الحديث حتى قاربت الساعة على الثانية عشرة فخرجت مسرعة . ووصلت إلى الحلاق . وهناك صفف لى شعرى تصفيفاً رائعاً . وأنا فى طريق عودتى إلى المنزل مررت على بائع الزهور . وطلبت النوع المفضل عندى وأعطيته العنوان . ثم قدت العربة فى سرعة إلى منزلى وقد كانت الساعة الثانية . وفى حجرتى ارتديت « تايير » أزرق له ياقة بيضاء على شكل بحار وحذاء وحقيبة من القش الأبيض . ونزلت

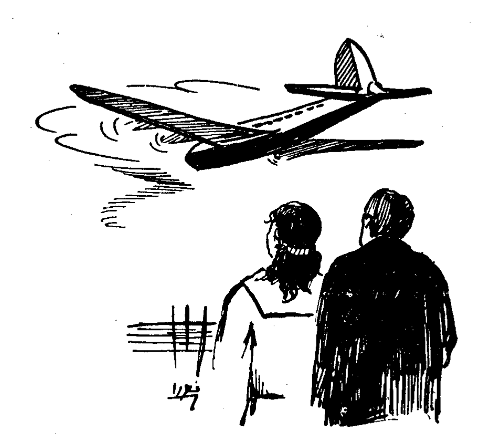
وكان أبى قد انتهى من طعامه . وركبنا سوياً العربة متوجهين إلى المطار . كنت أقودها بقلب واجف وبسرعة غريبة. ونسيت إنى حاقدة على يحي وإنى أقسمت الأيمان الغليظة وقطعت الوعود . يبق أمامى هدف غير الوصول إليه . وأخيراً وصلت . ثم توجهنا إلى مكان الانتظار وجلست أنا وأبى وطلبنا كوبين من الليمون . ثم فنجانين من القهوة. كل ذلك وأبى يدخن سيجاراً بعد سيجار. وأخيراً انطلق صوت يذيع نبأ وصول الطائرة فانفرجت أسارير والدى الطيبة الحانية . وقال فى صدق :

— الحمد لله يا بنتى إنه وصل بالسلامة . أصل أنا لما الطيارة اتأخرت الساعة دية قلقت خالص .

— الحمد لله يابابى .

وتقدمنا بضع خطوات إلى الأمام . ثم انتحينا يميناً ودخلنا من باب آخر وكانت الطائرة فى طريقها إلى الهبوط . وأنظارنا معلقة فى الفضاء .

واقتربت الطائرة قليلا قليلا. ثم عادت إلى الارتفاع مرة أخرى وهبطت ثانية ببطء وتؤدة حتى لامست عجلاتها أرض المطار وجرت عليه مسافة. ثم توقفت تماماً. وانفتح بابها وابتدأت عيوننا وعيون المنتظرين تتعلق بالهابطين منها إلى أن وقعت عيناى عليه بقامته



واقتربت الطائرة قليلا . . ثم عادت إلى الارتفاع .
المديدة وشعره الأسود الأبيض وملامحه الشرقية الحادة .
ولم أشعر إلا وصوتى ينطلق فى حدة :

— ياباى آهه نازل بعد الست إللى شايلة شنطة كبيرة . . .

لقد أصابتنى قشعريرة وهزة ورجة .

— فين فين يابنتى لخبطتينى . آه حقيق لك حق موش إللى واضع نضارة كبيرة على عينيه .

— بالظبط ياباى .

ولمحت فى عين أبى الاطمئنان وكأنه يقبله بهما وهو ما زال على سلم الطائرة .

أما يحيي فكان يبحث بعينيه ويمط رقبته لكى يرى الواقفين خلف الحاجز فى انتظار أقاربهم . حتى وقعت عيناه علينا فرفع يده ملوحاً لنا وكأنه فى تلك اللحظة يتنفس الصعداء . وظل يلوح طوال نزوله من سلم الطائرة وحتى بعد أن نزل منها . وكان ينظر أمامه بضع ثوان ثم يعود ليصوب نظره إلينا . وكان يرتدى بدلة زرقاء أنيقة لم أرها عليه من قبل وربطة عنق بنية اللون وحذاء من الشمواه . وتلك النظارة الكبيرة التى تحجب جزءاً من وجهه وبينما أنا فى وقفتى هذه إذ أحسست برجل خلفى .

فالتفت نحوه . لكن كم دهشت وكم فوجئت لقد كان الدكتور . فتصافحنا وتبادلنا النظرات البريئة أو نظرات الفرحة بعودة يحيي سالماً من الخارج . وعرفت أن الطبيب كان فى المطار من مدة وأنه كان قلقاً مثلنا حين تأخرت الطائرة عن موعدها .
وكان يبتسم لى بعين الرضا وكأنه يهنئنى بل كأنه يقول لى إهدأى واهنأى فقد عاد حبيبك سالماً لتتزوجا وتسعدا بالحياة معاً . ولكن نظراته هذه جعلتنى أفكر فى المستقبل وأفكر فى الأمس الراحل وأستعيد أشياء وذكريات كثيرة أفقدتنى حماسة اللقاء . غير أن والدى نبهنى إلى أنه انتهى من المرور على بعض المكاتب وانتهى من الكشف على الباسبور ومن هذه الإجراءات . فجرينا ثلاثتنا وكأنى أجر رجلى جراً وأكاد أستحلفها أن تساعدنى وتتحامل على

نفسها وتجرى حتى تصل إليه وهنا وجدت الدكتور أخرجنى من هذا الرجاء وتلك التوسلات وأمسكنى من ذراعى بيدء وجرى معى وهناك تقابلنا به ودفعنى الطبيب دفعة قوية إليه وكأنه يقدمنى قرباناً على مذبح الحب الذى كان يعوزه الإخلاص والصدق! ولكن هذا لم يؤثر فى ولم يجعلنى أتلهف عليه وأحتضنه وأود أن أبقى هكذا بقية حياتى . وصافحته وكأننى عند أول مرة رأيته فيها . ولكنه شد على يدى بقوة وكأنه يقول لى .

— إننا وإن كنا لا نستطيع تبادل القبل . فإننى لا أستطيع أن أمنع يدى من أن تعانق يدك الغالية...

بعد هذا أحتضنه أبى فى حنان وعطف وقد ظفرت الدموع من عينيه . ثم صافحه فى حرارة بالغة انتهت بأن قبل أحدهما الآخر وكأنهما أخوان فرق الزمان بينهما أمداً طويلا . ثم وجه أبى الكلام ليحيى :

— حمدلله على السلامة يابنى

— الله يسلمك ياعمى — والله كانت سويسرا عايزاك

— يابنى ياما اتفسحنا واحنا شباب زيكم فى كل العالم . أنا قعدت فى أوربا سنين وسنين لكن دلوقتى خلاص عجزنا .

ثم التفت إلى قائلا :

— الله مالك ياشويكار متتكلمى .

فرد الدكتور وقد ابتلع تنهداته المعهودة فى هذه المواقف :

— ده بس من فرحتها ياأفندم . فنظر إلى يحيى قائلا :

— حقيق ياشويكار زى ما بيقول الدكتور . لا ياستى أنا موش عاوز الفرحة إللى تسكتك بالشكل ده عن الكلام .

وضحكنا شويا ثم قال :

— والله مافيش زى مصر أبداً. لما الواحد يلف الدنيا كلها . مصر ديه لها فرحة ثانية الواحد موش عارف يوصفها .

فرد الدكتور مازحاً :

— إنت هتخلينى أقول إن عندك عقدة حب الوطن ولا إيه؟

فرد يحيى على الفور .

— واكتر والله يا دكتور أنا بأحب وطنى فعلا .

ثم أدار رأسه إلى وكادت أنفاسه تقترب من وجهى قائلا :

— حب الوطن أو حب ساكن الوطن . ولا إنت موش شايفه كده ؟

فشعرت أن هذه الكلمات هزت كيانى القلق وقضت على ترددى فى التحفظ معه . بل جعلتنى أشعر بحنين إلى مثل كلماته هذه . بل « وقفشاته » اللاذعة وابتساماته العريضة . ثم مشينا . وأبى والطبيب يتسامران متأخرين عنا بضع خطوات . ثم أمسك بيدى يضغطها فى حنان ويتحسس أصابعى فى دعة وكأنه يتعرف إلى

قلبي عن طريقهم . ثم اقترب منى قليلا وهمس فى أذنى ببضع كلمات . وختمها بهذه العبارة .

— شوفى ياستى جايلك بمفاجئة لذيذة وهاقول لكمفاجأة أسعد منها .

— طيب مرسيه على المفاجأة اللى جبتها من قبل ما أشوفها بس موش عارفة أقولك رأيى فى المفاجأة التانية إلا لما تقولها .

وهنا قاطعنى لجأة بقوله :

— ياسلام على مصر وعلى جمال مصر . . .

— إنت كأنك غبت سنة ؟

— أبداً أصل فى الحقيقة أنا عايز أقولك إنى مشفتش حد أجمل منك علشان كده أنا باقول مافيش أجمل من مصر . ولاحتى سويسرا بحالها .

— مرسيه أوى يايحيى ده من ذوقك ولطفك .

كل هذا والدكتور يتحدث مع أبى فى اهتمام . وكنا قد سرنا مسافة فى بطء انتهى بالنسبة للحقائب . ثم اجتمعنا كلنا مرة أخرى وكانت الساعة قاربت على الخامسة مساء . غير أن الدكتور بادر بالقول بدون أن ينظر إلى :

— معلش بقه ياجماعة أسيبكم أنا علشان رايح المستشفى .

— إزاى تسبنا يا دكتور أنا لسه مشبعتش منك ولا أعدنا معاك خالص .

— معلش يايحيي بك أنا مرتبط بميعاد العيادة الساعة سته بالظبط . فرصة تانية إن شاء الله أعد معاك تانى .

ثم أسرع ومد يده مصافحاً واقترب منى .

— أورفوار يامدموازيل شويكار أتمنى لك أوقات سعيدة

— مرسيه أوى يادكتور بس لازم نشوفك مرة تانية

ثم استدار ومشى بعيداً وخيل إلى أنه يجرى جرياً حتى غاب عن أعيننا فقال أبى :

شاب لطيف له مستقبل أحسن من اللى هو فيه . ده أبوه كان راجل طيب خالص الله يرحمه .

ثم سرنا سوياً وأنا متعلقة بزراع يحيي حتى ركبنا العربة . أنا فى القيادة ويحيي بجوارى وأبى فى الخلف . ومرت فترة صمت طويلة بيننا وأخيراً قطعها أبى بقوله :

— أمال جرشت عربيتك فين يا يحيي ؟

— وهى فين العربية بتاعتى ما بعتها قبل ما أسافر .

— ليه يابنى ناوى تجيب واحدة غيرها ولا إيه ؟

— لأ لأ إنت ياعمى هتخلينى أقول المفاجأة إللى كنت مخبيها

ولا إيه الحكاية إنى ما بعتهاش قبل ما أسافر ولا حاجة . لكن وأنا هناك بعت لابن عمى هنا قلت له اتصرف فى العربية بتمن معقول لأنى عرفت إنى راح أروح بعثة بعد عشرين يوم من حضورى لمصر . وذلك لمدة ست أو سبع شهور . وعلشان كده أبيعها واشترى واحدة جديدة وأنا جاى من هناك .

فقال أبى بشىء من القلق :

— وديه مفاجأة . ديه حاجة تزعل يعنى راح تسيبها ست شهور تنيين . . .

ولكنه قاطعه مستغرباً .

— لأ طبعاً ياعمى أنا راح آخدها معايا على طول ليلة كتب الكتاب أمال أنا جاى ليه ؟

فقاطعه أبى مرة أخرى .

— والجهاز يابنى موش دية حاجة تاخد وقت كبير وشهر واتنين وتلاته وسنه كمان .

فرد ضاحكا .

— ما هو البركة فى حماتى بأه تتعب وتتسلى فى الوقت نفسه وتشوف الأود وتجهزهم على مهلها .

فقال أبى موافقاً :

— إذا كان ده يوافق شويكار أنا معنديش مانع ؟

فقلت وأنا فى لجة من التفكير .

كله على الله يا بابى. الواحد ميعرفش هو راح يبقى فين بكره .

ثم مرت فترة صمت أخرى وعاد أبى ليسأله :

— أمال انت عملت إيه فى المشوار ده ؟

— أنا رحت اتفرجت على الآلات وتقريباً تعاقدت عليها باسم الشركة إللى باشتغل فيها . لكن قبل ماتيجى لازم نبعت خبراء فنيين ومهندسين يتعلموا تركيبها إزاى . وإن شاء الله هأكون رئيس البعثة دية .

فقال له أبى بارتياح :

— طيب مبروك يابنى ربنا يوفقك .

— متشكر ياعمى .

وأخيراً وصلنا إلى منزلنا ونزلنا جميعاً وأمر والدى البواب بإنزال الحقيبة التى أشار إليها يحيى . وكان البواب وجميع الخدم فى شدة السرور لحضوره. وكان يحيى هو الآخر يصعد درجات السلم فى سرعة عجيبة. وعند الباب قابل أم وردة وصافحها بحرارة ولم تنس هى أن ترش الملح علينا من العين . وأدخلته فى حجرة المكتب وجلسنا ثلاثتنا . وبعد بضع ثوان حضرت أمى .

— أهلا أهلا بالعريس كده تغيب الغيبة الطويلة ديه .

— أبداً يا أفندم والله الظروف أحياناً تضطر الواحد إنه يتأخر

— لكن إنت صحتك اتحسنت عن زمان . مافيش نسبة .
— طبعاً يا أفندم التغيير عليه عمل كبير .

وبينما هو يتحدث مع والدتى تركتهما ودخلت إلى حجرة الطعام لأشرف على آخر لمسات الأناقة والنظام فيها . ولأتأكد أن الخدم اعتنوا بكل كبيرة وصغيرة . وقد صفت الورد فى وسط السفرة فأضفى عليها بهجة. وكأنها تغنى فرحة جذلة بقدومه . وأضأت جميع الأنوار وكأنى أعلم الدنيا بمجىء خطيبى وحبيبى . وبعد أن انتهيت من اعداد كل شىء . صعدت إلى غرفتى لأطمئن على زينتى وتعطرت ببعض العطر المفضل عنده . ونزلت مرة أخرى . وماأن دخلت حجرة الجلوس حتى نظرت أمى موجهة كلامها إلى :

— أنا ماعنديش مانع عقبال ما ترجعوا أكون أنا حضرت كل حاجة تمام وعلى مهلى بدل السرعة فى اليومين القليلين دول .

طيب يا ماما إللى تشوفيه و . . .

وشعرت لأول مرة أنى طفله تعتمد على أمها فى كل شىء . ثم أضاف يحى قائلا :

وطبعاً ممتك عارفة ذوقك كويس.

— طبعاً يايحي داه أنا عارفة شويكار وعارفة كل اللى نفسها فيه من أوله لآخره وهأزود عليها كمان .

ثم نظرت إلى وبيدها السيجارة فى شىء من الأرستقراطية والأناقة :

— على العموم أنا أعرف إن بيعجبك فرش بنترومولى والديكور بتاعه كذلك . . موش كده ولا أيه ؟

— أيوه يا مامى بس فى العشرين يوم دول نكون شفنا كام كتالوج ونستقر بالتقريب على موديلات الخشب والباقى عليكى . الديكورات والفازات والسجاجيد والتحف و . . . و . . . و . . .

— طيب من بكره نكون هناك يا شويكار إن شاء الله .

— مرسيه يا مامى .

بعد هذا مرت فترة صمت قصيرة وسعيدة . وكل منا يتطلع إلى الغد المشرق. ثم استأذنت والدتى وخرجت، وبعد برهة دخل السفرجى يطلب والدى وخرج هو الآخر . وعرفت أنهما يتفاوضان فيما قاله خطيبى ويقرران مصيرى . وانتهز يحيى هذه الفرصة وجلس بجوارى على الأريكة . ثم أخذ يدى فى رقة وطبع على راحتها قبله عبر فيها عن مدى شوقه وهيامه .

وأخيراً سألنى :

— مالك ما بتكلميش ليه ؟ ما بتسألنيش على أى حاجة ؟

— والله يا يحيى الأسئلة كتير فى مخى لكن موش عارفة أقول إيه الأول . فقاطعنى قائلا :

— قوليلى يا يحيى تانى ؟ فقلت متعجبة .

— ليه فيه حاجه يا يحيى ؟



لا بس أصل وحشنى صوتك وانت بتقوليلى يا يحيى . كإنك بتغنى بالضبط .

— آه . . . إنت اتعلمت بره الغزل ولا إيه .

ثم هب من مقعده واقفاً وقال :

— وحياتك إنت علشان كلمة يحيى بس أنا راح أوريكى المفاجأة :

فأغمضت عينى جيداً وبصدق . وبعد مرور بضع ثوان أمرنى أن أفتحها . وإذ ذاك وجدت شيئاً هشاً أبيض مرصعاً . وعرفت أنه ثوب الزفاف ذلك الثوب الذى تحلم به كل فتاة فى يقظتها ومنامها وتنتظر اللحظة التى ترتديه فيها . وبجواره طرحة وتاج من الماس كأنهما ملاك صغير حول رأسه هالة من نور تجلب الأبصار . كل هذا وهو يبتسم وظهره إلى المكتب . ثم مد يده لى بصندوق صغير فأخذته وفتحته مسرعة وأخرجت منه حذاء فضياً دقيقاً رشيقاً . لقد كانت حقاً مفاجأة لذيذة فى فكرتها ومناسبتها . ولم يطل صمتى طويلا إذ تنبهت على صوته يقول :

— إيه رأيك عجبك ولا لأ ؟

— طبعاً عجبنى خالص . مرسيه يا يحيى .

ثم أخذت الفستان ووضعته على ووضعت الطرحة وأحكمت وضعها على رأسى . وهو خلفى ممسك بالفستان من وسطى بكلتا

يديه وأنا أنظر إلى الأكتاف من خلال مرآة الكنسول . والحق لقد كان منظرى كأميرة من أميرات الأساطير القديمة أو مركيزة صغيرة اشتهرت بأناقتها بين الأميرات .

وهنا دخلت أمى فجأة وأدهشها منظرى . فضحكت منادية على أبى . وجاء هو الآخر مسرعاً وأم ورده فى إثره .

— ألف ألف مبروك ياستى. عينى برده عليكى والله والله لأنا جايبالك شوية ملح .

وهرولت مسرعة ولكن أبى نادى عليها فى غيظ قائلا :

— يا أم ورده موش كده إنت (حدأتلنا) البيت خالص ياشيخة كفاية .

— يوه يابيه هو الملح بفلوس. لازم أعمل كده علشان العين.

— هى عين مين فينا . هو فيه حد غريب . ياوليه اعقلى .

وعند هذه الجملة تذكرت قصة ابنتها وردة كاملة . وسبب اعتقادها فى الحسد . وبدأ عقلى يذهب إلى الماضى البعيد فى قصتها ونهايتها . وأوشكت عيناى أن تمتلىء بالدموع . ولكن تنبهت على صوت أمى وهى تقول :

— تعرفى ياشويكار إن الفستان متقن جداً . شايفة البطانة تلات راقات بالنايلون غير الجيبون إللى معموله بالسلك.

فرد أبى قائلا :

— ماهى ديه إللى نفشت الفستان كده. أنا والله ياستات موش عرفلكم حل .

ده فستانك الواحد يحط تحته تلات عيال مايبانوش .

— فرد عليه يحي ضاحكا :

— ما هى ديه الأناقة ياعمى .

— أيوه يايحي إنت تفهم فى الحاجات ديه .

بعد هذا انتقلنا إلى حجرة الطعام . وجلسنا جميعاً . وهناك كانت أضواء الحجرة تنعكس على شعره الفضى الأنيق الذى يضفى عليه وقاراً وهدوءاً محبباً . كم كنت سعيدة جداً وأود أن آخذه من يده ونجرى فى شوارع الدنيا وطرقها وحدائقها المزدهرة الغناء وكأنها هى الأخرى سعيدة بسعاد تنافرحة لفرحتنا. كنت أحس أنه لن يكون هناك أسعد منا زوجين فى العالم . وكنت أسبح قليلا بخاطرى فى الأيام التى لن تنطفىء شمسها ولا يخبو نورها أبداً وأعود لأركز عينى عليه. وكان أول شىء بلفت نظرى فيه شعره الأسود الأبيض . ثم عاودنى شعور بأن أغرز أصابعى فيه وأتحسسه فى حنان واستطلاع وقد خيل لى أننى سأجد شيئاً جديداً مثيراً لم أجده فى الرؤوس الصبيانية الصفراء أو السوداء . لقد كنت أرى

فى سواد شعيراته ماضى المبعثر . وكما كنت أجد فى بياض شعيراته مستقبلى معه الأبيض المزهر .

وهنا ضحكت فى نفسى وعجبت لها كيف تتقلب كأمواج البحر . فحيناً يبدو هذا البحر هادئاً لا حراك فيه كما تبدو زرقته صافية تنعكس عليها ألوان السماء التى لم تتشح بالسحب . وأحياناً يبدو هذا البحر وهو يغلى غليان المرجل وماؤه الأزرق قد استحال إلى رمادى أو أسود من كثرة ما علق به من رواسب القاع . هذه هى صورة نفسى التى جعلتنى أتعجب أشد العجب من نفسى . ولكنى أعود فأقول هذه الكلمة الخالدة التى لا أجد غيرها فى التعبير عن ضعفى أمام القدر :

هكذا خلقت ولا حيلة لى فى الصورة التى طبعتنى الأقدار عليها . وانتهى هذا اليوم رائعاً جميلا هادئاً لما كنت أشعر فيه بمنتهى القناعة. وفى صباح اليوم التالى كنت أنا وأمى عند بنترومولى ننتقى بعض الأثاث ونشاهد بعض الكتالوجات على أحدث الموديلات. وبعدها خرجنا من عنده نجوب بعض المحلات . واشتريت بعض الملابس الخفيفة التى كنت فى حاجة إليها . ثم عدنا إلى المنزل وكان والدى قد حدد موعداً للكتاب بعد أسبوعين . ويحيى قد أخبرنى أمس أنه سوف يسافر اليوم إلى بلدته ليزور والدته ويزف لها الخبر ويعلمها بموعد القران . وقضيت بقية هذا اليوم وحيدة مع نفسى فى حجرتى أفكر فى شخصى وفى كيانى وفى أخلاقى وقلت:

أى نوع من النساء أنا ؟ ما الذى يشدنى مرة أخرى إلى يحي؟ ما الذى يجذبنى إليه بهذه الطريقة ؟ يالهى ألم أقسم أنى سأكون حرة ولن أتقيد به بعد ذلك . ألم أكن سعيدة باستنشاق هواء حريتى وانطلاقى؟

ماذا دهانى ؟ إنى أكاد أموت وأشعر أنى كالزهرة العطشى إلى وجوده بجانبى كحاجة الوردة تماماً إلى الماء والهواء . وانتابنى غيظ عظيم وقلت فى نفسى: إذن فيس لى إرادة . فيرد صوت من أعماقى يقول .

نعم ليس لك إرادة أبداً مع من تحبين . وأنت هكذا خلقت بل إن خلايا جسدك خلقت لتضعف وتلين ثم تتحجر وتتقلص معلنة عصيانها لفترة من الزمن . تعود بعدها لتبدأ من جديد مع من تحبين أو تعشقين . كل ذلك يحدث لك يا شويكار .

وفى الصباح كنت أرتدى ملابسى ، مبكرة ، نشيطة ، وأتناول إفطارى بشهية . وبعدها دخلت حجرة الصالون وأدرت بعض الإسطوانات الراقصة . . . كنت مرحة فرحة . فلا غرابة إذ وجدت نفسى أرقص على أنغام التانجو اللذيذة . ثم دق جرس الباب ودخل يحي فاندفعت نحوه بلهفة وحنين وارتميت بين ذراعيه القويتين ودفنت رأسى فى صدره . . . سامعة دقات قلبه . ورائحة جسده وتسلل إلى أنفى وجسدى وأعصابى



. . وارتميت بين ذراعيه القويتين . .

فتوهنها وتهيجها وتجعلنى كقطعة زبد ذابت تحت أشعة الشمس .
ثم أخذ يدى بين يديه قائلا :

— تعرف إنك وحشتينى أوى . بقيت أحسب الأيام علشان آجى . فانطلق لسانى قائلا :

وإنت كمان وحشتنى قوى . تعرف أن احنا اتخلقنا لبعض .

فقال بهدوء :

بالظبط . . بس إنت فيك شوية حاجات موش فى أخلاق :
وفوجئت بهذه الجملة . ولكنى لم أحاول أن أفقد رباطة جأشى وقلت له .

— إيه هى ؟ وحياتى عندك لازم تقولها .
— أقول بس ما تزعليش ؟
— لا موش راح أزعل .

شوفى ياستى؟ أول حاجة إنت بتحبى الرقص أوى بشكل عجيب وخصوصاً الرقصات المودرن و . . .

— طيب إنت أمال بتحب ترقص إيه ؟

فضحك فى سخرية وكأنه يصفعنى فى قسوة قائلا :

— أنا مبأحبش أرقص . أو بالمعنى الأصح ما عنديش وقت أرقص .

— وإيه تانى موش عاجبك فيه ؟

— لأ إحنا زعلنا ولا إيه ؟

— أبداً وهأزعل من إيه ؟ كل واحد له عادات وطباع .

أيوه لكن الحب الحقيق يخلى الواحد يتطبع بطباع الشخص اللى بيحبه . حتى ولو كان يدوس على نفسه شوية .

طيب ياسيدى راح ندوس على نفسنا كثير موش شوية . قل إية موش عجبك تانى فيه ؟

— أقولك يا ستى . شرب السجاير أنا خايف على صحتك ودية كان أوامر الطبيب .

عندئذ تذكرت حقاً كلام الطبيب الذى قاله فى الكوفنت جاردن .

— تعرفى ياشويكار إن السجارة مكانها بين صوابعك بس .

فشعرت بشىء من عدم الرغبة فيه وفى سماع كلامه السخيف وانتقاداته اللاذعة . ولكنى أخرجت نفسى من هذا الشعور حين قال :

— تعرفى ياشويكار أحسن شىء فى المرأة ضعفها . دية أكبر ميزة . موش ضعفها الجسمانى . لأ . . ضعفها مثلا فى سماع أوامر زوجها ما دام هوه هدفها وحياتها وأملها فى الحياة .

فقلت بهدوء مرة أخرى :

— يمكن يكون كلامك صح بعض الشىء و . . .

وهنا توقف « البيكاب » فقمت لأعيد بعض الاسطوانات .

ثم دخل علينا والدى .

— صباح الخير يا يحيى .

— صباح النور ياعمى .

— صباح النور ياباَبى .

— إنت النهاردة لازم تشرفنا وتتغدى يابنى عندنا .

— معلش ياعمى حضرتك تأذن لنا بالخروج شويه لمدة ساعتين على الأكثر . وبعدين هأرجع شويكار تانى . وأنا عندى شغل بعدكده .

— طيب يابنى إنتوا عاوزين تقعدوا لوحدكم . أنا ماعنديش مانع . . . .

— أورفوار ياباَبى .

— أورفوار ياعمى. متشكر خالص .

وخرجنا غير محددين الجهة التى نقصدها. ولكن وجدت أننا نقف على باب نادى الجزيرة ودخلنا سوياً . كنت أشعر بلذة وأنا أعود إلى النادى بعدغيبة طويلة. وهاجت الذكرى فى نفسى وتذكرت أيامى الحلوة وشبابى الذى كنت ألهو به فى هذه الجنة . وشعرت

بحنين غامض إلى هذا الجو وإلى تلك الوجوه وإلى هذه الذكريات الغائرة فى نفسى بحلوها ومرها . ووجدت نفسى أضحك وأضحك بصوت مرتفع جعل الدهشة تعلو وجه يحى. وقضينا يوماً سعيداً تلته أيام أسعد وأكثر إشراقاً وبهجة. بل كنت كل يوم أشعر أنى أحب يحى ولا أحب أحداً غيره إنه هو الحب الصادق الحقيق لى الآن. إنى لم أعد أستغنى عنه لحظة واحدة. إن صورته وابتسامته لا تفارق عينى . إنه أول رجل أشعر أنى ضئيلة بالنسبة له . وكلما جلست معه شعرت أنى أتضاءل أكثر وأكثر حتى أكاد أذوب فيه بل أتلاشى تحت وقع نظراته ولمساته الحانية . حتى تذكرت اليوم الذى كدت أصفع فيه وجهى بنفسى وأحتقر ذاتى لأنى رفعت صورته من أمام عينى من على الكوميدينو . وذلك لأجل بعض حماقات سخيفة وقلت لنفسى .

— أجننت أنت أيتها النفس الخبيثة ؟ كيف جرؤت أيتها اليد على انتزاع هذه الصورة الوحيدة التى تركها لى وسافر بعيداً عنى ؟ فكانت نفسى ترد على فى قسوة وتقول :

— هذه إرادتك أنت . لم يكن لى دخل فيها . أنت أمرتينى وأنا نفذت الأمر .

فقلت لها بغيظ واحتقار ؟

— كان أملى فيك أن تكونى أكثر قوة وأن تعرفى أنى لم

أ كن أفعل هذا إلا حبا فيه فى الحقيقة . كيف لم تفهمى هذا أيتها النفس الحمقاء ؟

* * *

هكذا قضيت أجمل أيام عمرى فى هذين الأسبوعين . كنت أنام على صوته الحالم فى التليفون . وأصحو من نومى ليكون صوته أول ما أسمعه فى يومى الجديد . إن الأيام الجميلة الحالمة التى فيها رقة الربيع ودلاله وازدهار أيامه وإشراقه تمضى بسرعة كبرق عجيبة . ونحن نقترب ساعة بساعة من موعد الزفاف وقلبى تسرع دقاته فى قوة وعنف ورغبة وخوف . لا أعرف لهذا كله سبباً . ولم أعد أفكر فى ماضى الأهوج ، سواء أعرف يحيى عنه شيئاً أم لم يعرف . إننا سنترك هذا البلد بما فيها من ذكريات بيضاء وسوداء لنذهب إلى بلد بعيد فيه أناس آخرون وله أوقات مختلفة وحياة مختلفة . وهذا الأمل جعلنى أهدأ وأهدأ . بل وتنشرح نفسى . وكنت ألمح فى عينى أبى فرحة لا توصف ثم أتفرس فى عينيه مرة أخرى لألمح آثار حزن وألم . ربما لأنى سأفارقهم إلى بلاد بعيدة . سأفارقهم بكيانى مهما كان هذا الكيان مصدر تعب وإرهاق أو مصدر سعادة وإشراق . أما زوجته (أمى) فلم أكن ألمح فى عينيها شيئاً محدداً فهى تتمنى أن يتم كل شئ فى هدوء وينتهى إلى النهاية المطلوبة . أما مسألة فراقى فما دامت لصالحى فهى تسرها وتسعدها .

الفصل الثامن

اليوم الخميس يوم مشرق منير . جوه حالم رائع . شمسه ساطعة . وحرارته معتدلة . والمنزل كله فى نشاط وكأنه خلية نحل تعمل كلها فى آن واحد . وكلما قابلت أحداً قبلنى واحتضننى وكأنه سيودعنى إلى الأبد . وخاصة والدى — كان يدخل على حجرتى ويضمنى بين ذراعيه أطول مدة ممكنة . وكأنه يختزن بعض الحب لحين عودتى وأمى تربت على ظهرى فى حنان وتحسس شعرى فى رقة وكأنى طفل صغير فرحت أمه بالشعر ينبت فى رأسه الغض الجميل .

كل ذلك مع بعض الإرشادات والنصائح القيمة عن مستقبلى وبعض التحذيرات التى تصحب دائماً مثل هذه النصائح .

أما أم وردة فكنت أشعر أنها تتحسس كل جسمى وكأنها تزنه وترى فيه ثمره مجهودها طوال هذه السنين التى كانت معنا فيها منذ موت والدتى . وكنت ألمح فى عينيها بعض الدموع التى تسكبها بسرعة وكأنى أذكرها ابنتها التى لم تشهد لها فرحاً مثل هذا . تبتلع الدموع لأنها تجد فيها العزاء . وأجمل ما فى الحياة الدنيا أن يشقى الإنسان ويتعب ويذوب ألماً ثم يجد العزاء أو بعض العزاء . أما باقى من فى المنزل فقد وضعوا على

وجوههم ابتسامة جامدة حتى ذلك العجوز النوبى الذى مضى عليه عشرون عاماً يحرس منزلنا فى أمانة وصدق . وكأنه شعلة من نار لا ينطفىء لهيبها ؛ كان سعيداً بى وكأنى إحدى بناته الكثيرات السوداوات الدقيقات الملامح اللاتى كنت ألعب معهن فى طفولتى . كل هذا كان يمر أمام عينى فى شريط سريع من واقع حياتى . كنت أنتظر بعض الوقت حتى يجىء موعد حلاق . فارتديت ملابسى وهالنى أن أجد الدولاب خالياً إلا من بعض ملابسى القديمة . والباقى موضوع فى حقيبتين كبيرتين استعداداً للسفر الليلة بطريق الطائرة التى سأحلق وأحلق بها عالياً وبعيداً عن وطنى المحبوب ومسقط رأسى وأهلى وأقاربى وصديقاتى وأصدقائى . نعم — سأبعد وأحلق فى السماء مودعة منزلنا الكبير الكريم وحجرتى التى قضيت فيها أيام عمرى وشبابى والتى اشتركت معى فى كل شىء .

يا إلهى كيف سـأترك هذه الحجرة التى قضيت فيها خمسة وعشرين عاماً بأيامها وسعادتها وشقائها . بحلوها ومرها كيف سأترك دولاب ملابسى الذى تعودت عليه وتلك الأباجورة الحمراء وذلك (البيكاب) واسطواناته الحلوة — القديم منها والجديد اسطوانات ذابت من الاستعمال وأخرى لم تستعمل بعد . وتلك الفازة التى أخذتها من حجرة والدى لأنها أعجبتنى . وكنت كل يوم

أضع فيها الورد والزهور بنفسى . وكيف أترك طلاء حجرتى الذى تعودت عليه عيناى .

لا لا يا إلاهى لا تقس على إلى هذا الحد . إنى لا أستطيع مغادرة حجرتى حتى ولو نطقت وقالت غادرينى واتبعى زوجك ياشويكار. بعد هذا لم أشعر إلا والدموع تتساقط من عينى وتنزل على الأرض فى سرعة على سجادتى الحمراء الجميلة التى دست عليها بقدمين سعيدتين تارة وقلقتين تارة أخرى . ثم أفقت من هذه الخواطر والخلجات الحزينة الكئيبة على صوت والدتى .

— الله إنت نسيتى ميعاد الحلاق ولا إيه ؟

فمسحت دموعى بسرعة وأخرجت من حقيبة يدى نظارة شمس وضعتها على عينى . ثم التفت إليها مسرعة وقد وضعت على وجهى ابتسامة متكلفة :

— أبداً إزاى حالا أنا نازلة .

ونزلت مسرعة وأخذت العربة قاصدة الحلاق وقد زالت عنى الغمة وحل محلها بعض السرور الذى يتسلل إلى قلبى بطيئاً هادئاً . حتى وصلت. وهناك استقبلنى حلاقى استقبالا حافلا مهتما بشعرى فى هذا اليوم أكثر من أى يوم آخر . وقدم لى كثيراً من الكتالوجات لأتخير منها ما يناسبنى . ثم جاءت تلك الفتاة الضعيفة التى تميل

إلى النحافة لتهذب لى أظافرى . هذا كله مر سريعاً . ولم أشعر بالضيق وأنا تحت «السيشوار» تلك الآلة الثقيلة على كل نساء الطبقة الراقية لأنها تحيل الرأس إلى كتلة من النار . وبعد أن انتهى كل شيء ودفعت البقشيش بسخاء انصرفت إلى منزلى مرة أخرى وكانت الساعة قاربت من الرابعة . وحين دخلت المنزل قابلنى أبى وكان يجيء ويروح فى مكتبه . ثم فاجأنى بقوله :

— ليه يا بنتى أخذتى العربية ؟

— ليه فيه حاجة !

— طبعاً .

— إيه يا بابى ؟

لازم دلوقت أروح لغاية الدكتور الراجل إللى تعب معاك .

— طيب هوه موش حضرتك أرسلت له دعوة ؟

— أيوه لكن مردش وأنا خايف أصله مشغول أوى اليومين دول وكل ما أسأل عليه يقولوا إلى الدكتور موش فاضى.

— على العموم يا بابى لسه فيه وقت تقدر تروح له .

— طيب أورفوار .

— أورفوار يا بابى . لازم حضرتك تشدد عليه علشانى وتعمل كل ما فى وسعك .

— طيب طيب .

ودخلت حجرتى ، أنا فى لجة أخرى من التفكير . فقد اختلط على الرجلان يحيى وطبيبى . لا أستطيع أن أفرق بينهما . ولكن شيئاً أقوى منى يدفعنى إلى التفكير وفى الطبيب فى عينيه الزرقاوين وبشرته الملساء وجبهته العريضة التى تدل على ذكاء خارق . ودق قلبى دقات متلاحقة سريعة وأنا أحاول أن أؤجل هذه الدقات لأحداث أخرى .

ولكن هيهات هيهات — لم أستطع أن أوقف هذه النبضات وشعرت بحنين وشفقة على الطبيب . وقلت يا ترى لم يتحاشى أن يتكلم مع أبى . لأى سبب يا إلهى ؟ أخشى أن يكون حزيناً بعض الشىء . ولكنى تنبهت على دق التليفون دقاً متوالياً . ورفعت السماعة بقلب واجف ونفسى خائفة فإذا به يحيى يطمئن على وصولى من عند الحلاق وينصحنى أن أنام قليلا كما سيفعل هو الآخر ذلك . ثم وضعت السماعة ونحن نتبادل القبلات عبر الأثير . ثم نزلت إلى حجرة الطعام وتناولت قطعة من اللحم البارد وبعض البطاطس . وهناك كانت أمى مرتدية ثيابها استعداداً للذهاب إلى الحلاق بدورها . ولكنها لمحت الحيرة فى عينى فسألتنى .

— مالك بتفكرى فى إيه ؟

أبداً مافيش حاجة .

— أنا عارفاكى كويس .

ثم أضافت وكأنها تذكرت شيئاً .

— لازم أبوكى قالك حاجة بخصوص الدكتور .

فاضطررت إلى الإجابة :

— أيوه قال لى إنه موش عارف يتصل به من مدة ورايح يشوفه بنفسه .

— طيب ودية تهمك فى إيه عايز يحضر يتفضل . موش عاوز بلاش هوه حر . إحنا هنعزم الناس بالعافية .

— لأ موش قصدى بس كنت أحب إنه يحضر النهاردة .

— وبعدين يا شويكار . إنت لك عريسك وبس . وسيبى الباقى على أبوكى . ثم حذرتنى قائلة :

— إوعك تظهرى شيء ليحيي لحسن يزعل . داه راجل صعيدى ما يعرفش الكلام داه . ولا يغركيش كلامه .

ثم تركتها وطلعت إلى حجرتى وسط زغاريد أم وردة احتفالا بدخول كل سلة ورد . وحين وصلت حجرتى وجدت نفسى فى شدة التعب . فنمت بملابسى مستلقية على السرير ما يقرب من ساعة صحوت بعدها على دخول بعض صديقاتى اللاتى أرسلت لهن دعوات. وكانت الساعة قد قاربت السابعة مساء فقمت مسرعة وتوجهت إلى الحمام . ورجعت مرة أخرى وكانت البنات فى حالة

من الهرج والمرج حولى . وليلى كعادتها تحاول أن تساعدنى قدر استطاعتها :

— ألف مبروك يا شويكار .

— الله يبارك فيكى يا ليلى عقبالك .

— مرسيه بس إنت تجبيلى معاك عريس من بسره بأه .

— ياسلام بس كده .

— الفستان بتاعك شيك مشترياه جاهز ولا تفصيل .

— ده يحيي اشتراه من بره .

— ده باين عليه ولد يفهم حقيقى .

فرد باقى البنات عليها :

— هوه فيه رجاله اليومين دول مابيفهموش فى حاجات الستات وحتى فى الستات نفسهم .

وضحكنا جميعاً . وابتدأت فى خلع ملابسى ولكنى التفت إليهن .

— ياجماعة خمس دقائق بس علشان مكسوفه أقلع أدامكم وكمان الأودة ضيقة . وأنا هاموت من الحر .

فانصرفوا مسرعين . وابتدأت ليلى تمسك لى الثوب حتى لبسته وتأملتنى وأنا أضع المكياج بخفة ومهارة وقالت لى :

— فاكره ياشويكار لما كنت فى المستشفى خايفه تحطى تواليت وقلت أنا خلاص نسيت أحطه ازاى .

— آه والله ياليلى إنت لسه فاكره !

وهنا سمعت طرقاً شديداً على الباب . ففتحته مسرعة . ودخلت أم وردة على لاهشه وقد ارتدت أحسن ثيابها وتحلت بالكردان والحلق الذهب واعتقدت أنها أتت لتساعدنى فى شيء كعادتها . ثم قالت لى وقد اصفر وجهها وسحبتنى من يدى إلى ركن فى الحجرة :

— ياستى بعيد عنك الدكتور جه وسأل البواب على. ونادانى فقلت له اتفضل . قال لى لا أنا عايزك شوية بره . فخرجت معاه ومشينا على الرصيف لغاية الكشك بتاع السجاير . فقلت لها :

— وبعدين حصل إيه .

— وبعدها أعطانى الجواب ده وقال لى :

— إديه للست شويكار وقولى لها ألف مبروك .

فقلت لها بصوت كله غضب :

— طيب وإيه يعنى. وديه فيها حاجة علشان . . . .

— أصل ياستى كانت دقنه طويلة ووشه أصفر . . . و . . .

ثم خرجت وبقيت وحدى وليلى قد شغلت عنى بالنظر إلى المرآة . وفتحت الخطاب بيد مرتعشة وأنا أكاد أسمع دقات قلبى بأذنى وفيه يقول :

حبيبتى شويكار :

هل تسمحى لى ياشويكار أن أقول لك حبيبتى ؟

لقد كانت أمنيتى أن أقولها لك يوماً وجهاً لوجه ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن . إنى أكتبها وأقولها لك لأول مرة ولآخر مرة. إنى أحببتك وسوف أحبك طيلة حياتى .

أكتب إليك والساعة قد تعدت منتصف الليل والسكون حولى فى بيتى الصغير . سكون كأنه عزاء لنكبتى فى حبى الصادق الأخير . وأنا الليلة بل منذ اتصال والدك بى لا أشعر بالحياة .... قابع فى بيتى أندب حظى العاثر وأبكى أملى الضائع لا يشعرنى بالحياة إلا دقات ساعة الحائط معلنة أن هناك حياة وأن هناك حباً .... حباً ليس من نصيبى ولكنه من نصيب غيرى .

هل السعادة تبقى وهل الهناء يخلد ؟ من قال ذلك ؟ !

لقد كان أملى فى حبك سراباً .... أحببتك وأنت لا تحسين بحبى وهيامى فقد كان يحيى أسبق منى إليك . . كان هو حبك ورجلك وغايتك ومنتهى أملك . فلحق القطار وفاتنى . . ووصل إليك .... ووصلت أنا متأخراً .

ليتنى ماقابلتك . . . . ليتنى ماشاهدتك . . . . ليتك لم تدخلى المستشفى . . . ليت وليت ولكن هل كل مايرجوه المرء يحققه القدر؟ إن القدر الساخر يوزع السعادة والشقاء كما يحلو له وكما يعن له دون تفكير أو تدبير . لقد كانت كرة العذاب من نصيبى . . . كرة التعاسة والشقاء والآلام . . . أجل . . . لقد أحببت قبلك أنثى وأعطيتها كل شىء ولكنها جحدت ثم كفرت ثم خانتنى مع شيطان رجيم . . . ثم ألقت بى من نافذة حياتها . ومنذ ذلك اليوم أشعر أننى خلقت للشقاء والتعاسة . إلى أن حضرت إلى المستشفى فتجدد الأمل بعد يأس ونبتت الحياة بعد جدب وخيل لى أن الأيام ربما تصفو وتعطف على بعد طول حرمان وعذاب. ولكن كم كنت واهما لأنى لا أملك السعادة أو الشقاء . إن هناك قوة أقوى منى ومنك هى التى تصنع كل شىء — هى التى تريد ذلك . وكلمة أخيرة أحب أن أقولها لك عزاء فى حبك ياشويكار . هى سعادتك ولو بين أحضان غيرى لأننى أحببتك حباً كبيراً غريباً فريداً لا أستطيع أن أصفه لك .

ياشويكار .

لا أطلب منك إلا أن تذكرينى وأن تتذكرى أننى أتمنى لك السعادة والهناء أكثر مما أتمناهما لنفسى لأنك نفسى

وحبى الضائع و قلبى التائه المعذب .

وداعاً ياحبى

المخلص

شريف

هكذا كان إسمه شريف . وبعد أن قرأت هذه الرسالة هاجت ذكراه فى نفسى وتيقظ حبى له وشوقى إليه فى جوانب قلبى واشتعل بقوة جارفة .

ثم فكرت فى يحيى وحفل العرس . وفكرت أن أهرب من هذا الزواج. فقد شعرت أن حبى ليحيى كان وهما — ووهما كبيراً لا يزيد عن إعجاب ربما عاطفة عابرة ولكنى لا أستطيع أن أسميه حباً وعلى كل حال رباه — ما هذا الخطاب الذى قلب كيانى دفعة واحدة . .

ثم رجعت لأقول لنفسى :

لا . لا يمكن أن تفسدى هذا الحفل ياحمقاء

ولكن دون جدوى . فلم أسمع فى نفسى ولا فى قلبى ولا فى عقلى أى صوت لقد تبــــلدت وشعرت بقوة جارفة خارقة عارمة عمياء تدفعنى نحو شريف . ولمعت عيناى ببريق أيامى الماضية وضحكت ضحكة كان لها رنة فى أذنى تدفعنى دفعاً غاشماً مجنوناً إلى أن أهرع إلى شريف وأجثو راكعة تحت قدميه. وفعلا

وجدت نفسى أرتدى حذائى مسرعة وأخرج من الحجرة . وليلى تنادى على والمدعوون فى دهشة وأنا أزداد تصميما وصراخاً يخرج من كيانى أقوى منى وأقوى من كلمات الناس ونظراتهم . وكانت الساعة قرابة الثامنة حين كنت أجرى مسرعة فى شوارع الزمالك. ثم أخذت أول عربه تاكسى أمامى وصرخت بصوتى — لا لم يكن صوتى وحده وإنما كان كل شىء يصرخ وأمرت السائق أن يتجه إلى منزل شريف ونزلت هناك وصعدت السلم مسرعة لاهثة متلهفة — لم أنتظر حتى آخذ المصعد فجريت وطلعت السلالم وقرعت على الباب بشدة . ثم فتح الباب ودخلت فوجدت شريف وهو يمسك بالسماعة وحين رآنى وضعها بعنف وقال بدهشة .

— إيه إللى جابك ؟ ؟ ؟

فدق قلبى وجمعت كل عضلة فى وجهى لتعبر عن سبب مجيىء .

— جيت علشان إنى بأحبك . بأحبك بكل كيانى ياشريف ! !

جيت بفستان فرحى علشانك . . . . علشان أعطيك قلبى ونفسى .

فخبط بيده على المكتب وجلس على مقعده وقال ضاحكاً .

— تحبينى أنا . أمال فين يحيى حبيبك . يحيى إللى كنت ليل نهار تسألينى عنه فى المستشفى . يحيى إللى قبل أنه يتجوزك أنت



جيت بفستان فرحي علشان أعطيك
قلبي ونفسي

يا طايشة فتراجعت إلى الوراء . وفهمت كل شيء وذكرته بكلامه فى التليفون . وأخرجت الجواب من صدرى وقلت له . . .

— ليه طيب بعت لى الجواب ده .

— الجواب ده ملوش علاقة بيك يانمروده . الجواب ده كله على أنا . إيه الفرق بينك وبين الست مراتى مثلا أو أى امرأة خائنة ثانية . إيه الفرق قوليلى . أنا حبيت فيك حبك واحترامك ليحي أنا جعلت منك أحسن مثل للستات .

ثم خبط بيده على جبهته العريضة التى تدل على ذكاء خارق وقال وهو يبكى :

كلكم ياستات واحد . كلكم واحد مافيش واحده كويسه عن الثانية . حتى شويكار . . حتى شويكار ! !

ثم قال فى صوت ضعيف :

— لقد دنست محراب الحب ! !

عند هذا جمدت الدموع فى عينى تماماً وكونت غشاءاً خفيفاً كنت أرى خلفه كل شىء يتراقص ويتراقص ويزعجنى بحركته . فاستدرت مسرعة وهبطت السلم وأنا أشعر أن كيانى يهبط وذاتى تنهار وشخصى يتلاشى ويذوب ليصبح لا شيء فى الوجود .

وحين وصلت إلى الشارع لم أتحمل نظرات التساؤل من المارة فى الطريق. فقد خيل لى أن كل من فى الشارع يرمينى بنظرات الاحتقار والازدراء . فألقيت بنفسى فى أول عربة قابلتها وصرخت مره أخرى فى السائق : على الزمالك يا أسطى . وسارت العربة وأنا أكاد لا أرى شيئاً البتة . ووصلت الزمالك وبعد الكوبرى نزلت من العربة وجريت أدخل فى شارعنا — شارع طفولتى وصباى وكانت الطرحة قد سقطت من على رأسى هى وتاجها الجميل ولطخها التراب وتمزق ثوبى الرائع . وكأنهما قد هربا منى استنكاراً لخيانتى فى اليوم الذى كنت سأتزوج فيه ممن أحبنى ومنحنى اسمه ومستقبله وقلبه وشرفه وسمعته وأحلامه وآلامه وآماله . إنهما يمثلان الطهر والعفاف وأما أنا فكما قال شريف :

— دنست محراب الحب . فلم أعد أستحقهما . حتى حذائى الأنيق الدقيق أبى أن يسير معى فغاص فى أسفلت الطريق وأبى أن يخرج وكأنه يفضل أن يموت على الأرض عن أن ألبسه أنا . أنه صنع لأمشى به فى طريق مرصوف بالورود ترفرف السعادة على جانبيه — لا طريق الدموع والحيرة والضياع . فحاولت أن أعالجه وأخرجه من الأسفلت. وقلما لم أفلح تركته لأسير حافية القدمين. وبيدى الخطاب — خطاب شريف. ثم لم أشعر إلا ويدى تمزقه إلى قطع صغيرة وكأنى أنتقم منه . كما مزقنى . ومزق كيانى كل هذا وأنا أسير حافية القدمين حتى وصلت قرابة بيتنا . وكان

المدعوون ينزلون منه كأنهم فى مأتم . مطأطئين رؤوسهم تعلو
وجوههم كآبة خرساء عميقة . فتواريت وراء شجرة كبيرة
والدموع تنهمر من عيناى كثيرة ساخنة . ونسمات الربيع
تجففها لتفسح الطريق لدموع أشد سخونة ولذعة وازداد نزول
هذه القطرات الحائرة الضائعة من عينى حين شاهدت يحيى يخرج
من المنزل وينظر فى ساعته ليلحق موعد قيام الطائرة وأبى خلفه
لا يعرف ماذا يقول . ويحاول أن يعتذر له ولكنه كان مشغولا
عنه أو أراد أن ينشغل عنه هو الآخر ليتركه هكذا يسير وراءه
يريد أن يقول أى شىء لعل فى هذا الشىء انتقاماً منى . . . وخلف
يحيى كلبى العزيز يجرى وراءه وكأنه يقبل الأرض التى يمشى عليها
ويستحلفه أن يأخذه فى طريقه. وكأنما أصبح لا يطيق هو الآخر
البقـــاء فى هذا القصر . وهنا سحقت الخطاب فى يدى وألقيته
بكل ما أملك من بغض وكراهية فى الطريق وكأنه هو الذى كشف
عن قلبى فأصبح قلباً بلا قناع .

((تمت))